سعيد ناشيد

لماذا نعيش؟

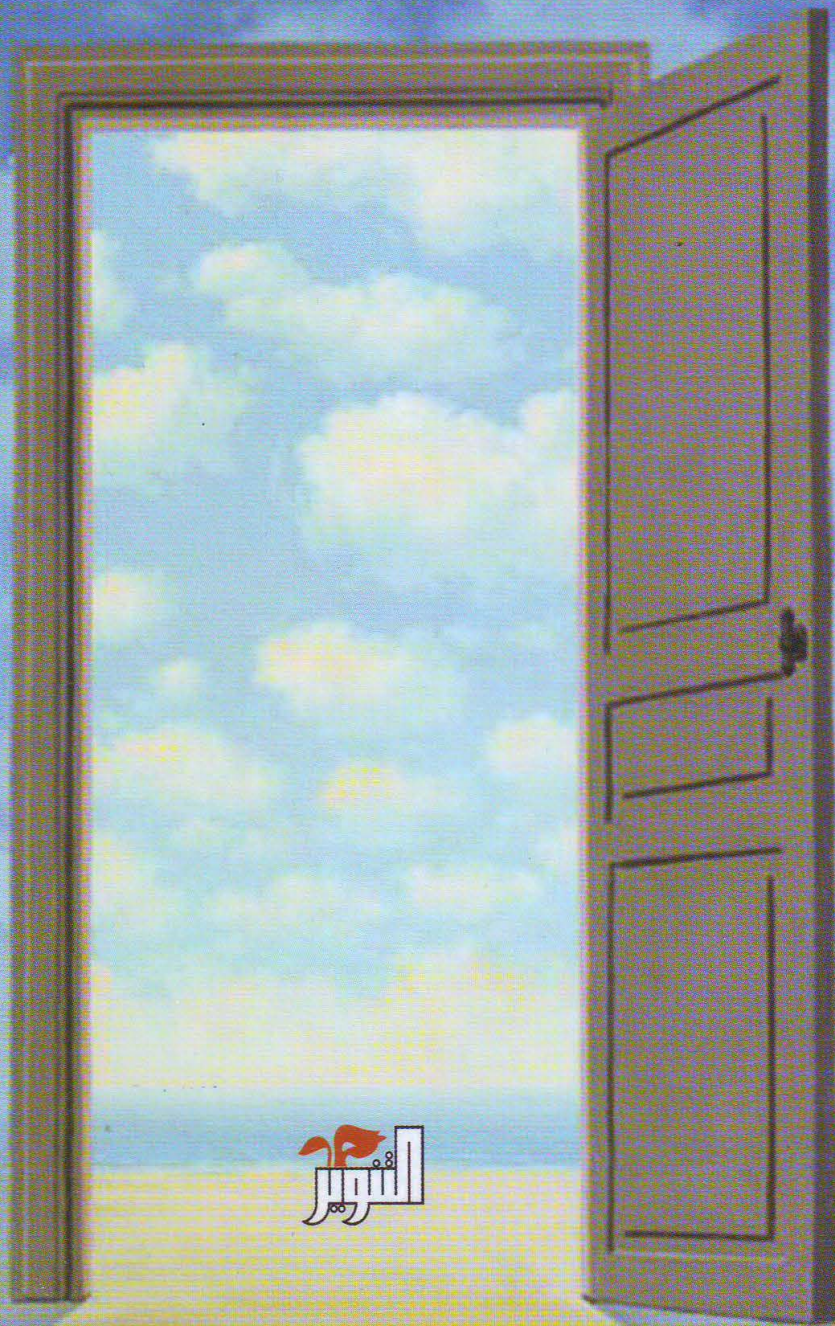

التنوير

الكتاب: لماذا نعيش؟
تأليف: سعيد ناشيد
عدد الصفحات: 224 صفحة
الترقيم الدولي: 0 - 219 - 472 - 614 - 978
الطبعة الأولى: 2022
جميع الحقوق محفوظة لدار التنوير © دار التنوير 2022

الناشر
دار التنوير للطباعة والنشر
الإمارات العربية المتحدة: مدينة الشارقة للنشر - المنطقة الحرة.
هاتف: 00971529481646
تونس: 16 الهادي خفشة - عمارة شهرزاد - المنزه 1 - تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar - altanweer.com
مصر: القاهرة - 2 شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar - altanweer.com
لبنان: بيروت - بئر حسن - بناية فارس قاسم (سارة بنما) - الطابق السفلي
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.daraltanweer.com

سعيد ناشيد

لماذا نعيش؟

المحتويات

إهداء..... 11

المقدِّمة 13

الفصل الأول: في ملحمة المعنى 15

السؤال والإشكال 17

صيغة أخرى للسؤال 19

معنى أزمة المعنى..... 20

معنى الحق في المعنى 21

سؤال المعنى ومعنى السؤال 22

تجريم ديكارت! 24

الفصل الثاني: المعنى في فقدان المعنى 27

جدوى الشَّكّ في الحياة؟..... 29

شجاعة قول «لا أعرف الحقيقة» 30

جدوى الشكّ في الجدوى..... 32

معنى ألّا ندري المعنى..... 35

فتجنشتين الذي عاش..... 37

الفصل الثالث: الحياة وإرادة النمو 43

ما الحياة؟ 45

ذروة السؤال..... 47
الحياة مقاومة..... 48
لا يرحِّب الكون بالحياة..... 49
كأنَّ الحياة فلتة..... 50
طاقة الحياة..... 52
إلى أين نسير؟..... 54
نحو حضارة متعدّدة الكواكب، أو أرخبيل الفضاء..... 56
اندفاع الحياة نحو التقدم..... 58
أصل الخير والشر مرة أخرى..... 61
يقين أقل وثقة أكبر..... 63
سفينة البشرية..... 65
الفصل الرابع: قيمة الإنسان..... 67
غاية الإنسان أم الغاية منه؟..... 69
قيمة الإنسان أم قيمة الحياة؟..... 71
نشأة الإنسان من وجهة نظر الحياة..... 74
العلم من وجهة نظر الحياة..... 76
الأسئلة الأربعة..... 76
هل من أحد هناك؟..... 79
الحياة نعبُرها أم تعبُرنا؟..... 82
الذات جسرًا..... 83
القوانين الثلاثة..... 84

الفصل الخامس: روحانية الكون والحياة..... 87
روحانية الحياة..... 89
رعاية الأخاسيس 92
لماذا لا شيء هناك؟ 94
شبح الجسد 96
العالم أرقام وأنغام..... 98
العالم كما نراه 99
لأننا نحب أن نحدّق في النجوم..... 101
الفصل السادس: معنى الحياة الذكيّة 105
ذكاؤنا من ذكاء الحياة..... 107
الدوافع والعقل 109
الحاجة إلى الخيال 112
نتكافل أم نتقاتل؟..... 115
نقد الحاجة إلى التنافس..... 118
يكفي أن أسبقك 119
أسرع، أعلى، أقوى معًا 120
الفصل السابع: لماذا نعيش إذًا؟..... 123
الحياة كإجابة 125
معنى تحقيق الذات 128
الحياة من وجهة نظر الحياة 131
التعاطف مع حكايات الناس 133

معايير الحياة..... 134
المعنى باعتباره إبداعًا..... 136
حكمة ديوجين وحدودها 136
الأقنعة الضرورية للحياة 139
الفصل الثامن: بين الألم والملل والأمل: تأمّل في الشقاء البشري 141
في حضرة الألم..... 143
في حضرة الملل 145
رعب أوقات الفراغ 151
فخ الأمل 153
الفصل التاسع: شقاء الحياة اليومية 159
شقاء الحياة الزوجية 161
شقاء الأبوة 166
لماذا لا نحبّ وقت الظهيرة؟ 168
«كيد النساء» أم «قيد النساء»؟ 170
الشقيّ من لا يحكم نفسه 173
درس أفلاطون..... 175
الفصل العاشر: معنى الحياة الفلسفيّة 181
لماذا نعيش؟ هو سؤال الحياة الفلسفية..... 183
ما معنى الحياة الفلسفية؟ 185
فن العيش أو الحياة أثرًا فنيًّا 187
الحياة الفلسفية 190

الفصل الحادي عشر: على سبيل الحياة 193
رحلة الإنسان، رحلة كل إنسان 195
لماذا يحكي السندباد؟ 199
فكرة الموت من أجل فكرة 202
الإجهاض من وجهة نظر الحق في الحياة 205
الحق في السعادة 207
رهان الفلسفة وغايتها 209
ازرع حديقتك! 212
حقوق الخاسرين! 213
الخلاصات العشر 217

إهداء

إلى الخاسرين الذين لم يسابقوا في المدرسة إلى المراتب الأولى، لم يسابقوا في المهنة إلى المناصب العليا، لم يسابقوا في الصلاة إلى الصفوف الأمامية، لم يسابقوا في الحياة إلى الخيرات والفُتات، ولم ينافسوا أي أحد على أي شيء.

إلى الخاسرين الذين أضاعوا الوقت كله في تأمل النجوم والحشرات، فتأخّروا في الطريق إلى الطريق، ثم فاتهم القطار، لكنهم وصلوا في حالة جيّدة.

بوسعهم الآن أن يستمتعوا بأجواء المحطّة طوال الوقت، بلا أسى ولا انتظار.

بوسعهم في الأثناء أن يقرأوا هذا الكتاب.

أنا واحد منهم.

أجلس في محطة الانتظار من دون أن أنتظر أي شيء.

المقدِّمة

كانت أوقاتًا عصيبة حين عكفتُ على تأليف هذا الكتاب. فقد طُردتُ من الوظيفة العمومية بقرار وقّع عليه رئيس الحكومة المغربية، ثم حاولت جهات رسمية التشهير بي عبر بعض وسائل الإعلام. طيلة أسابيع عديدة كانت القضية قضية رأي عام وطني ودولي، كانت حديث الساعة، وكان لذلك كله ثقل كبير على الذاكرة والوجدان، لكنه كان بمثابة امتحان.

أنصفني القضاء بلا تلكؤ ومن دون تأخير، وأبطلت المحكمة الإدارية القرار الظالم جملةً وتفصيلًا، رغم ذلك كله كان عليّ أن أنتظر شهورًا طويلة لأجل إجراءات التسوية والإنصاف، وذلك كلّه تحت هاجس يرى أن «هيبة الإدارة» في الميزان!!

«كرامة المفكّر» لا تساوي شيئًا أمام «هيبة الإدارة» إذا! رغم ذلك لا أحد يجهل أن التاريخ الذي يحفظ رسائل الفلاسفة والأدباء والمفكرين بكل احترام وتقدير، سرعان ما يضع مراسلات الإداريين في سلّة المهملات. للأسف، هذه المعادلة العادلة قد تثير في بعض النفوس بعض المشاعر السلبية.

هل هي مأساة أوطاننا، أم إنها المأساة في أوطاننا؟

باختصار.

تزامنت أزمة الانتظار الماراثوني مع أزمة الحجر الصحي بسبب جائحة كورونا. أمضيتُ الأزمة الصحية مع أسرتي من دون أي تغطية صحية، فقد أوقفوا لي كل شيء بسرعة قاسية وقياسية، ثم تقاذفوا بملفّي كجمرة حارقة.

واجهتُ الانتظار بعدم الانتظار، واجهتُ التكاليف بالاستغناء والاكتفاء، واجهتُ الملل بالمشي والتأمل، كما أوقفتُ في الأثناء كل اللقاءات والالتزامات والأسفار. وفي غمرة الفراغ القاتم قرّرتُ أن أخوض المواجهة المؤجّلة مع السؤال الذي طالما أعوزتني الشجاعة الكافية لمواجهته.

وها أنا أستجمع أنفاسي لكي أواجه السؤال:

لماذا نعيش؟

كان النزال مع السؤال مجازفة خضتُها بلا ضمانات مسبقة، بلا يقين، غير أني قرّرت عدم التراجع، مهما كانت النتيجة. لم أكن مدفوعًا برغبة إظهار أيّ بطولة، بل تدفعني فكرتي عن العيش.

هل كسبتُ الرهان الآن؟

الحكم ليس لي، غير أني خضتُ المواجهة كما ينبغي، وبإمكاني أن أتقبّل الحكم الذي سيصدره القارئ عن طيب خاطر، وجلّ ما أطلبه ألّا يأتي الحكم النهائي إلا بعد الانتهاء من قراءة الكتاب بكل أوراقه، من الإهداء إلى نهاية الكتاب.

الفصل الأول

في ملحمة المعنى

السؤال والإشكال

في كل بقاع الأرض، رغم اختلاف الثقافات والحضارات والديانات، قد لا يوجد مراهق واحد لا ينتابه بين الفينة والأخرى قلق السؤال عن معنى الحياة؟ وهو القلق الذي يترك ندوبًا على الأوراق والجدران، ووشومًا على الجسد، وجروحًا في الوجدان: لماذا وُلدتُ هنا الآن؟ ما جدوى أن أعيش طالما سأموت؟ ما الغاية؟ ما الفائدة؟ ما المغزى؟ ما المعنى؟

وبالجملة، لماذا أعيش؟

لعلّه سؤال فترات العمر كلّها، من الطفولة المبكرة إلى أرذل العمر، لكنه سؤال المراهقة على وجه الخصوص، حين يندفع المرء إلى إثبات ذاته من دون أن يعرف لأجل ماذا يجب أن يثبت ذاته؟ فما إن يرى أن من حقّه أن يعيش كما يريد، حتى يداهمه السؤال: لماذا أعيش أصلًا، ولأي غاية في النهاية!؟

يُشبه الأمر أن يُسحب الإنسان فجأة فينظر إلى أين يُسحب قبل النظر إلى من يسحبه؟

لأجل ذلك كله، طبيعيّ أن يسبق سؤال لماذا نعيش الحياة؟ سؤال كيف تُعاش الحياة؟

السؤال الأول، لماذا نعيش الحياة؟ هو سؤال لحظة التمرّد، والذي قد يتخذ صيَغًا من قبيل: لماذا أفعل؟ لماذا أتعلم؟ لماذا

أعمل؟ لماذا أتزوج؟ لماذا أنجب؟ لماذا أعيش؟ أما السؤال الثاني، كيف تعاش الحياة؟ فهو سؤال لحظة التفكّر والهدوء، والذي قد يتّخذ صيَغًا من قبيل كيف أفعل؟ كيف أتعلم؟ كيف أعمل؟ كيف أتزوج؟ كيف أنجب؟ كيف أعيش؟

السؤال الأول هو سؤال المحكوم بالمؤبَّد في يومه الأول، حين يتساءل: لماذا أنا هنا؟ ماذا أفعل هنا؟ كيف وصلت إلى هنا؟ هل هذا حقيقيّ أم إني أحلم؟ هل أملك فرصة أخرى للنجاة أم قُضي الأمر؟

السؤال الثاني هو سؤال المحكوم بالمؤبد بعد أن يستوعب أن الحكم حقيقيٌّ ونهائيٌّ، فيتقبل واقع الحال ويقرّر أن يواصل الحياة مهما تكن ظروف الحياة، وبالتالي ينتقل إلى السؤال التالي، فيقول: كيف سأمضي أيام عمري في السجن يومًا بيوم، ولحظة بلحظة، حتى النهاية؟

السؤال الأول هو سؤال (الإنسان المتمرّد) لألبير كامو، كما أنه سؤال الشخصيات الرئيسية لمعظم رواياته.

السؤال الثاني هو سؤال فلاسفة (تقبّل القدر- amor fati). اليوم، من خلال عديد من المفاهيم التي تؤثث لديهم للحياة الناجحة: تقبّل الخسارة، مسايرة القدر، الاستغناء، الاكتفاء، عدم التعلّق، التركيز على الحاضر، قوة الفرح، إلخ.

أن يترك المرء سؤال معنى الحياة مقابل أن يعيش الحياة كما هو متاح، فهذا ممكن في كل الأحوال، بل شائع بين الناس، لكن هل بإمكان الكائن العاقل تفادي سؤال (لماذا؟) من دون التوقّف عن

التفكير نهائيًا، ومن دون أن يُصاب العقل الذي هو خاصية الإنسان بالتلف والضمور، وذلك حتى وإن كان المقابل سعادة المُتاح!؟ وفي المقابل هل يمكنه أن يواجه السؤال ويواصل التفكير والتأمّل باقتدار من دون أن ينتهي به المطاف إلى الاكتئاب، وبالتالي التفكير في الانتحار، مفَرِّطا في الحياة العزيزة على كل الكائنات الحيّة كلها!؟

سؤال معنى الحياة، حين لا نحسن التعامل معه، فإنه قد يقودنا إما إلى البلاهة أو الاكتئاب.

ذلك ما يحدث في كثير من الحالات.

فماذا عن الخيار الآخر؟

الخيار الآخر هو أن نحسن التعامل مع السؤال.

هذا هو خيارنا، ورهاننا كذلك.

صيغة أخرى للسؤال

سواء أكنا متدينين، إنسانيين، عقلانيين، علمانيين، أصوليين، تقدميين، فوضويين، عدميين... كيفما كنا، وكيفما كانت قناعاتنا، كلنا يغمرنا شعور غامض بوجود قوة حيوية تدفعنا في اتجاه ما، نحو قدَرٍ ما، وعلينا ألّا نعاند الاتجاه.

أرجِّح ابتداءً، وبوحي من أطروحة شوبنهاور، أن تكون تلك القوة هي إرادة الحياة، التي تسري في كل مكان من الكون، وتتخذ مسمَّيات مختلفة في بعض الديانات الآسيوية، لكن أيًّا كانت طبيعة تلك الطاقة الحيوية الغامضة، والتي تدفعنا إلى المجهول،

فإننا نحتاج إلى أن نعرف إلى أين نحن مدفوعون؟ نحتاج إلى أن نعرف الاتجاه. أليس هذا هو ما نقصده بالمعنى؟!

في دلالته الاصطلاحية داخل بعض اللغات الأوروبية، فإن المعنى يعني الاتجاه. لعلها مصادفة معبِّرة، قد تمثّل فرصة لصياغة أخرى للسؤال، بنحو يحمل المعنى الحقيقي للإشكال.

الإشكال هو نفسه: لماذا نعيش؟

ننساه حينًا، نتذكره حينًا، أو نهجره لكي نعيش.

لكننا حين نهجره لا نعيش.

معنى أزمة المعنى

تتّفق مختلف الإحصاءات الأمميّة على أنّ الانتحار يمثل السبب الأوّل للوفيات في مختلف سجون العالم، ويكون الاحتمال مرتفعًا لدى المحكومين بفترات طويلة أو بالمؤبد، فمعظمهم لا يواصل البقاء على قيد الحياة إلّا بقدر ما يهجر التفكير جملةً وتفصيلًا، مكتفيًا بغريزة البقاء في الحدود الدنيا للبقاء، ولو من أجل لا شيء عدا النوم والطعام، مع الاستعانة بكل الوسائل الممكنة للإبقاء على العقل في حالة تخدير.

إذا كان ألبير كامو يعتبر فعل الانتحار مشكلة فلسفية، فلأنه القرار الأكثر تعبيرًا عن أزمة معنى الحياة التي تستبدّ بالوعي في معظم الأوقات. بوسعي أن أضيف إلى فعل الانتحار، فعل الإدمان، وكذلك فعل الإرهاب الانتحاري.

من خلال الانتحار تجد أزمة المعنى حلَّها الجذري والفوري

في التخلّي عن الحياة. التخلّي عن الحياة عبارة في منتهى الدقة: نهايتنا لا تعني نهاية الحياة، فالحياة كانت قبلنا وستبقى بعدنا، ونحن الذين سنتركها أو أنها ستتركنا في النهاية، كما أنها ليست حياة الآخرين الذين بدورهم سيتركونها، لكنها الحياة بألف ولام التعريف.

من خلال الإدمان تجد أزمة المعنى حلها الجذري والفوري في تعطيل الوعي، والتخلّي عن التفكير.

من خلال الإرهاب الانتحاري تجد أزمة المعنى حلّها الجذري والفوري في التخلي عن الوعي والحياة معًا، فتطفو الرغبة في تدمير العالم استعجالًا للقيامة التي ستخلّص الأرض وما عليها من اللامعنى:

أمام الله لا معنى لأي شيء آخر!

أمام العالم الآخر، كل هذا الكون الذي نعرفه والذي يحتاج إلى أرقام فلكية للتعبير عن مساحته وعدد مجرّاته، لن يساوي «جناح بعوضة» كما في بعض المرويات!

أمام الدار الآخرة كل الديار باطلة!

بهذا النحو تدخل بعض الثقافات في حرب شرسة ضد الحياة.

حربٌ غالبًا ما تكون قذرة يظن جيشها أنه الرابح الأكبر، لكنها حربٌ خاسرة.

معنى الحق في المعنى

يندرج معنى الحياة ضمن الحاجيات الرّوحية للإنسان، مثل

الشعور بالانتماء، والصداقة، والحب، غير أنه خلاف الانتماء والصداقة والحب، فهو يقتضي مراعاة الحسّ العقلاني المغروس فطريًّا في وجدان الإنسان، طالما الأمر رهين بكل ما يعنيه المعنى من معانٍ.

أن نلبّي الحاجة الرّوحية والحسّ العقلاني معًا، فتلك معادلة صعبة، تستدعي منّا كثيرًا من الصبر والتروي، وأثناء ذلك وجب الاستعداد لخوض مخاطرة غير مضمونة النتائج.

بهذا المعنى سنُواصل رحلة الخوض في سؤال المعنى، ومعنى سؤال:

لماذا نعيش؟

سؤال المعنى ومعنى السؤال

لماذا نعيش؟ سؤال المراهقين، كما سبق الذكر، وهو سؤالهم الأهم قبل أن يقنعهم المجتمع بتركه ونسيانه مقابل بعض الأدوار المنوطة والأقنعة المطلوبة، من قبيل دور الزوج، الزوجة، الأب، الأم، رجل الأمن، رجل الدين، المدير العام، البستاني، البهلوان، الأستاذ أو غيرها من الأدوار التي يوفرها المجتمع. لعلها مساوَمة مكلفة في المستوى الشخصي غير أنها لا تخلو من فائدة في مستوى الحياة العامة طالما تسمح للمرء بأداء وظائف ضرورية لأجل استمرار الحياة في سياق مراحل محدّدة من تطوّر الحياة، مثل ماذا؟ مثل التركيز على الإنجاب لأجل تفادي انقراض الإنسان بفعل ارتفاع معدل وفيات المواليد وهشاشة المناعة

الطبيعية، ومثل التضحية بالنفس لأجل حماية الجماعة من الكوارث والأوبئة والوحوش، ومثل الانخراط التام في آليات الإنتاج الجماعي ضمن ظروف إنتاج تعتمد على العمل اليدوي.

صحيح أن الإنسان العاقل لا يتزوّج ولا ينجب، كما يُقال، ذلك أن الوعي لا يملك ما يكفي من المبرّرات للإقدام على عملية الإنجاب حتى ولو كان اللّاوعي يملك ما يكفي من الدوافع، لكن يجب أن يُقال أيضًا، لو كان الإنسان العاقل عاقلًا أكثر من اللزوم لانقرض النوع البشري منذ اللحظة الأولى لظهور الإنسان العاقل.

والحال أن زوال الحياة الذكية لن ينفع الحياة بأي حال.

نهاية الحياة الذكية قد تعجّل بنهاية الحياة برمَّتها، والتي تعاني من هشاشة أصلية، لا يمكن تقويمها بغير العلم والعقل والمعرفة، بمعنى الذكاء.

إنه التحدّي المطروح أمام الإنسان بمعزل عن أوهام «الكمال الطبيعي».

الطبيعة ناقصة، الحياة كذلك، لكنْ، هناك فارقٌ أساسيٌّ: تمتلك الحياة سعيًا دائمًا إلى النمو والارتقاء، وتعويض حسابات النقص والعوز.

قد لا يكون الإنسان صديقًا جيدًا لكل الكائنات الحية. بعض الثقافات تعادي بعض الكائنات الحية مجانًا، أو عدوانًا، نعرف ذلك، ونأسف له. كما نعترف بأننا إذا حدث أن قرّرنا أن نقتلع شجرة أرز واحدة، أو شجرة أركان واحدة، لأجل أن نبني مصنعًا لإنتاج حليب الأطفال، فلا أحد سيكترث بمصير الشجرتين.

الإنسان ليس صديقًا مثاليًا لكل أشكال الحياة. لذلك تبقى مسؤوليات الإنسان أمام الحياة رهانًا إشكاليًا بالفعل.

غير أن انقراض الحياة الذكيّة لن يحمي باقي أشكال الحياة من موجات الانقراض التي ضربتها مرارًا، وأفنت معظم الأنواع التي ظهرت، وفي إحدى المرات كادت تمسح الأرض من كل مظاهر الحياة، ولا تزال تلوح في الأفق المنظور مثل شبح رهيب.

تجريم ديكارت!

لسبب غير مُقنع -على الأقل بالنسبة لي- يُصرّ بعض «غلاة البيئة» على تحميل ديكارت مسؤولية في تدمير البيئة، بدعوى أنه وجّه العلم الحديث نحو السيطرة على الطبيعة، ما جعل الأمور تسوء في ظنهم! إلّا أنهم بذلك النحو يتسبّبون في إنهاك الحداثة بمشاعر الذنب، على منوال من يربطونها بالمحرقة، أو الحربين العالميتين، أو الاستعمار، وما إلى ذلك من مظاهر تأثيم الحضارة المعاصرة، والعلم الحديث، والمجتمع الصناعي، وهؤلاء في العادة ممّن يخلطون بين نقد السياسات المعاصرة ونقد الحضارة المعاصرة، وما أكثرهم في بعض المجتمعات! إنهم أيضا ممّن يخلطون بين إحباطهم الشخصي ومصير العالم برمَّته، وما أكثرهم كذلك في كثير من المجتمعات!

أولئك يتناسون، إما عن حسن نية أو عن سوئها، أن الحياة وُجدت منذ البدء في بيئة معادية لكل أشكال الحياة، وهو ما يفسّر حدوث ما لا يقل عن خمسة انقراضات جماعية على كوكب

الأرض قبل عشرات الملايين من السنين، قضت إجمالًا على معظم الأنواع، وكاد بعضها ينهي كل مظاهر الحياة على وجه الأرض، فقد قضى ما يسمى بالانقراض الجماعي الثالث على 96٪ من الكائنات الحية، وذلك قبل أن يولد ديكارت بملايين السنين! وعلى مدى آلاف السنين من الوجود البشري وقعت عشرات الأوبئة التي هدد بعضها وجود الإنسان، ومثلًا في القرن السادس الميلادي قضى «طاعون جوستينيان» على 50٪ من سكان الأرض، وفي القرن الرابع قضى «الطاعون الأسود» على ما يقارب من خُمْس سكان العالم، وأمات ثُلث الأوروبيين، وكان ذلك أيضًا قبل انبلاج العصر الحديث بزمن طويل.

لا ننكر وجود أضرار بيئية للعصر الصناعي، ومع أن معالجتها تتم بهذا القدر أو ذاك، عن طريق العلم والذكاء البشري، وحتى الذكاء الاصطناعي، إلّا أنها تستدعي مزيدًا من التحكم في قوانين الطبيعة، وبالتالي مزيدًا من السيادة الإنسانية على الطبيعة العمياء، درءًا لضربات الانقراض المحتملة. بل يجب الاستعداد للانتقال من مطلب سيادة الإنسان على الطبيعة إلى مطلب سيادة الإنسان على الكون، وبالموازاة على الكينونة كذلك.

وها نحن نعيش مرحلة التوجّه نحو السيادة على الكون، ذلك أن البيئة الجديدة للنوع البشري آخذة في الانبساط العمودي نحو الأعالي، حيث العالم العلوي الذي كان يسميه أرسطو بـ«عالم ما فوق القمر»، علمًا بأن التطلع إلى بناء مستوطنات للعيش هناك في أعالي الفضاء، بدأ يتبلور في شكل مشاريع علمية وعملية.

أما السيادة على الكينونة فقد كانت موضوع الكثير من الفلاسفة، وديكارت واحد من أبرز أولئك الفلاسفة، فهو يعلم بأن الإنسان لا يمكنه أن يكون سيدًا على الطبيعة إلا بقدر ما يكون سيدًا على نفسه، ولأجل ذلك ألّف في آخر أيامه كتاب (أهواء النفس)، وذلك اقتناعًا منه بمعادلة أنّ:

السيادة على الكون تتطلّب السيادة على الكينونة. لا هذا بلا ذاك.

ذاك مشروع الحداثة العلمية منذ ديكارت.

وهذا مشروع الحداثة الأخلاقية منذ سبينوزا.

وهذا أيضًا هو الهاجس الأساسي لمشاريع حكمة العيش لدى فلاسفة اليوم، والذين يحفرون في جذور «محبّة الحكمة»، بحثًا عن إمكانات جديدة.

الفصل الثاني

المعنى في فقدان المعنى

جدوى الشّكّ في الحياة؟

يقال عن الحضارة المعاصرة إنها أول حضارة تجيب عن سؤال معنى الحياة بعبارة «لا أدري»! هذا صحيح بلا أدنى لبس، لكن يجب أن يُقال أيضًا إنها أول حضارة تترك السؤال مفتوحًا من دون أن تمارس على العقل أيّ نوع من الوصاية، أو تلجأ إلى بعض أساليب المصادرة على المطلوب، ما يعني أنها أول حضارة تطرح السؤال بالمعنى الحقيقي للسؤال، إذ تعتبره سؤالًا مفتوحًا على إمكانات جديدة في فهم النفس الإنسانية. ولقد كان هذا هو المنشود على الدوام، أن يُترك السؤال مفتوحًا.

صحيح أن معظم الناس لا يحبّون عناء الأسئلة، بل يفضّلون الأجوبة الجاهزة لكي ينصرفوا إلى الأدوار التي يوفّرها لهم معيشهم اليومي، غير أن سبب ذلك أن غالبيتهم العظمى تشيخ وتموت من دون أن تنجح في بلوغ مرحلة الرّشد. هذا مآل الكثيرين، بيدَ أنه لا يليق بالحياة الذكية.

مهما بلغت حدة الإنكار، إلا أن الشك في جدوى الحياة يبقى كامنًا في جذور اللاوعي الجمعي للحياة الذكية.

قديمًا كان ذلك الشك متروكًا للشعراء الصعاليك والمجاذيب، والذين يمثّلون متنفسًا ثقافيًا لكل المكبوتات الكامنة في اللّاوعي الجمعي، هناك حيث تبقى نزوة الشك في الطابوات كامنة في

نفوس جميع الناس، غير أنها مغلّفة بالإنكار، بما في ذلك الشك في جدوى الحياة نفسها. ولذلك نراهم إما يعيشون ليومهم، فيتنازعون من أجل وَهْم تحسين ظروف العيش المادي، أو ينكرون أهمية هذه الحياة، فيبحثون عن حياة ستأتي بعد الموت فينسجون أحلامًا، بل أوهامٌ تجعلهم ينكرون أهمية البحث عن معنى الحياة التي يعيشونها.

إذا كان الناس قد تركوا للشك في جدوى الحياة متنفسًا في الهامش وثقافة الهامش، فلأنهم لا ينكرونه مطلقًا، ولا يستطيعون ذلك، وكل ما في الأمر أنهم يخشون أن يهدد القواعد التقليدية للعيش إذا أطلقوا العنان للشك.

شجاعة قول «لا أعرف الحقيقة»

قبل ظهور الحضارة المعاصرة، ومنذ أن وُجد الإنسان على وجه الأرض، كان ديدنه البحث عن الحقيقة، لكن الحقيقة الأساسية التي يكتشفها كل إنسان، ويرفض أن يعترف بها الغالبية العظمى من البشر هي حقيقة: أننا لا نعرف أي شيء عن الحقيقة، وأنّ البحث عن الحقيقة وهم.

إن إدراك أنه لا توجد حقيقة ثابتة لا تتأثّر بما نراكمه من معارف وخبرات، أي هي يقين لا يتزعزع، هو ما يخفيه الأهل عن أولادهم حبًا لهم وخوفًا عليهم. يظنّون أنهم بذلك يحمونهم، بينما في الواقع يدفعونهم نحو التسليم بواقعهم ويجعلونهم خاضعين للمنطق السائد الذي فرضته السلطة -سواء الزمنية أو الدينية أو

الاجتماعية- وعاجزين عن خوض متعة البحث عن المعنى عبر تمرّدهم على ما زُرعَ فيهم.

إن مشهد الأب الذي يبوح لأبنائه بهدوء وسكينة بأنه لا يعرف لماذا نعيش؟ لا يزال نادر الحدوث في مجتمعاتنا. لأن موقفًا كهذا يلجمه الخوف: الخوف من أن يتمرّد الابن الشاب، أو الابنة الشابّة، فيعاني من غضب سلطتي السياسة والدين، وأيضًا الخوف من أن يفقد الأب «سلطة الأب» التي استمدّها بدوره من الخوف من البحث عن إجابة عن سؤال لماذا نعيش؟ علمًا بأن سلطة الأب هي الأساس الذي كانت تبنى عليه كل السلط الأخرى، والتي هي امتداد لسلطة الأب في المستويات العمومية والدينية.

كان التوجس -بهذا القدر أو ذاك- نابعًا من الاعتقاد بأن الشاب كائن لا أخلاقي بطبعه، مثل الطفل، لا تضبطه إلا المخاوف والأوهام.

لا ننس صك الاتهام الذي قاد سقراط إلى الإعدام: إفساد عقول الشباب.

إفسادهم بماذا؟

إفسادهم بإثارة الشك، ومساءلة المسلَّمات. وهو ما يُترجم في بعض القانون الجنائي المغربي بـ«زعزعة عقيدة مسلم». وهذا على سبيل المثال لا الحصر.

الخوف دائمًا على الشباب، بمعنى أن الخوف من الشباب، والذي يجب ألا يشك في المعنى الذي يتّفق عليه المجتمع حول معنى الحياة، حتى لا تفسد «اللعبة»!

الحضارة المعاصرة هي أول حضارة في التاريخ وقف فيها عدد من شيوخها، فلاسفتها، أطبائها النفسانيين، مسؤولي المقرّرات الدراسية، وكذلك كثيرين من الآباء، لكي يقولوا للشباب واليافعين والأطفال: لا نملك أي إجابة نهائية عن معنى الحياة؟ وعليكم أن تتدبّروا معنى حياتكم بأنفسكم، ومهما تكن خياراتكم سنحبكم وسندعمكم.

في حدود انعدام اليقين يكون الحبّ عزاءً جميلًا.

كلمة «أحبك» هي أجمل عزاء للفانين. إنها الكلمة التي تمنح الرضا الأخير في لحظات الوداع.

على أن الحضارة المعاصرة ليست أول حضارة تتبنّى الشك في جدوى الحياة وحسب، بل لعلها أول حضارة تحاول الجمع بين الشكّ الجذري في جدوى الحياة والعمل الجدّي على تحسين ظروف الحياة.

مفارقة صارخة أم معادلة صحيحة؟

جدوى الشكّ في الجدوى

قد يصل الطالب إلى درجات عالية في مساره المدرسي وحتى الجامعي وينتابه الشكّ في جدوى المسار الدراسي الذي اختاره، وصرف من أجله سنوات، وهو شكّ قد يضعه باكرًا أمام الشكّ في جدوى الحياة برمتها. يحصل ذلك كثيرًا في أوقات الامتحانات! الأمر طبيعي، فلا أحد يحبّ أن يُمتحن، لا أحد يحبّ يوم الامتحان. صحيح أنّ الشك يجب ألّا يستهلك كل الوقت، لكن

الخوف منه وإخفاءه قد يُصيِّره شبحًا ينخر المرء من الداخل، وقد يدفعه إلى خيارات مدمرة.

ذلك الشكّ إذًا، يجدر الاعتراف به، التعامل معه، والعمل على استيعابه بوعي يقظ ومتيقظ، سواء لأجل المُضي قدمًا إلى الأمام أم لغاية تعديل المسار عند الضرورة. وفي كل الأحوال وحده الشك يجعلنا منتبهين إلى التفاصيل الأكثر أهمية، كما أنه فرصة للتقييم أو التقويم بين الفينة والأخرى، وكلما لزم الأمر.

الشكّ في جدوى الحياة ضروريّ للحياة الذكية، والتي لا يكفيها أن تجد الماء والهواء والغذاء، بل تبحث عن جواب مقنع لسؤال المعنى: لماذا أنا هنا؟ ماذا أفعل هنا؟ لأجل ماذا؟ ولأي غاية في النهاية؟ فإما أنها ستواصل حمل سؤال المعنى وتحمله بصبر وبصيرة، إلى أن يثمر حياة عاقلة، أم إنها ستلقي بالحمل مبكرًا، وتفرّ إلى شتّى أنواع المسكّنات والمهدّئات والمنوّمات.

صحيح أن أسئلة كتلك قد تكون عامل إحباط، وقد تؤدّي إلى حياة شاحبة حين يحاول المرء أن يهرب منها ويكبتها ويهدّئها بالأوهام، لكنها ستكون عامل قوّة وحياة مبدعة حين يحاول المرء أن يعيها، يستوعبها، ويتعايش معها بقناعة واكتفاء. يحتاج الخيار الثاني إلى دربة شاقّة، كما هو حال التدرّب على العزف الموسيقي، أو بذل جهود كبيرة، كما هو حال مَن يدرس الطب أو الفلسفة... لكنه الخيار الأليق بالحياة الذكية.

قد يصيب الشكّ كثيرين بالإحباط، لا سيما أولئك الذين نشأوا على الخوف من الشك كما لو أنه وسواس من الشيطان، بينما هو

يمثل المناخ الأنسب للإبداع، وذلك عندما يتم استيعابه بحس نقدي يقظ ومتيقظ. فمن لم يشكّ في جدوى الفلسفة مرارًا لن يصبح فيلسوفًا ذات يوم، ومن لم يشكّ في جدوى الموسيقى مرارًا لن يصبح موسيقيًّا ذات يوم، وقديمًا رأى بعض المتصوّفة أنّ الشكّ في الإيمان ضروريّ للإيمان، لا سيما حين يتعلّق الأمر بالإبداع في الإيمان.

لم يغب سؤال لماذا نعيش، أو كيف نعيش عن حضارات ما قبل الحضارة المعاصرة، لكن الحضارة المعاصرة هي أول حضارة تجعل سؤال، لماذا نعيش؟ سؤالًا مفتوحًا على مصراعيه ومطروحًا للنقاش العمومي بلا قيود مسبقة، ويُثار في أهم القضايا المطروحة، سواء قضايا حقوق الانسان والطفل، أم حق التعلّم أم قضايا البيئة والعدالة وأخلاقيات الحياة وغير ذلك.

بل أكثر من ذلك تحاول الحضارة المعاصرة أن تستثمر السؤال عن جدوى الحياة من أجل تحسين ظروف الحياة، وفوق ذلك من أجل توفير ظروف حياة مبدعة. فلا ننسى أن من حرقة السؤال عن جدوى ما يفعله الرسّام خرجت أشهر اللوحات العالمية، ومن حرقة السؤال عن المعنى خرجت أقوى نظريات الفلسفة. ولا ننسى كذلك، أو بعد ذلك، أن كثيرًا من الموسيقيين لا يعزفون، لكن حياتهم مليئة بالأنغام. إنهم فنانون يمنحون الجمال للحياة... يمنحونها معنى لم نكن نعرفه من قبلهم.

ثم لا ننسى أنّ:

الشك في الحب لا يقوِّضه بالضرورة، بل قد يقويه عندما يسعى المحبّ لبذل الكثير من الحبّ بحثًا عن استمرارية الحب.

كذلك هو أيضًا الشك في الإيمان. وهذا مما قلناه من قبل، ومما يعرفه أهل العرفان.

وكذلك هو أيضًا الشك في كل ما يُقدَّم لنا على أنه حقيقة.

معنى ألّا ندري المعنى

صحيح أن الحضارة المعاصرة حين تواجه سؤال معنى الحياة؟ بـ«لا أدري»، ستلقي الحيرة في النفوس المجبولة على اليقين، وهو ما يخشاه الكثيرون لحسابات سياسية أو تقديرات ثقافية أو مصالح شخصيّة، غير أن الحضارات السابقة كانت تجيبُ عن السؤال نفسه بـ«لا شيء»! ففي العصر الوسيط مثلًا، كانت الحياة بلا قيمة طالما هي مجرّد قنطرة للعبور نحو «الحياة الأخرى»، نحو «الوجود الحقيقي» بمعناه يكاد يكون واحدًا في الحضارات القديمة وصولًا إلى معناه الأفلاطوني أو المسيحي أو الإسلامي.

إنّ الحداثة اليوم لم تطرح على عالم اليوم إجابة عن سؤال معنى الحياة، غير أنها بفتح السؤال تمنح للحياة معنى، على نقيض مرحلة ما قبل الحداثة التي رأت أنّ وظيفة الحياة ليست التمكّن من عيش الحياة بل الاستعداد للموت، ولـ«ما بعد الموت»: الحساب، الجزاء، التناسخ، الاتحاد، إلخ.

أمام تلك التصوّرات يجب التنبيه ابتداء:

ليس دور الحداثة تأكيد أو إنكار «ما بعد الموت»، فأسئلة من ذلك القبيل وفي ذلك المجال ستجيب عنها بدورها بـ«لا أدري»، من دون أدنى تردّد. حين يتجاوز الأمر حدود العقل فإن النزعة اللاأدرية هي روح الحداثة منذ كانط إلى غاية اليوم.

هل معنى ذلك أن السؤال عن معنى الحياة يقع خارج حدود العقل طالما تجيب عنه الحداثة بـ«لا أدري»؟

في واقع الحال لم تتخلَ الحداثة عن السؤال، فهي تطرحه للنقاش العمومي، ضمن قضايا حرية الاعتقاد، البيئة، أخلاقيات البيولوجيا، الإجهاض، الموت الرحيم، ونحو ذلك من القضايا المطروحة، غير أنها أعادت السؤال إلى سياقه الدنيوي:

ما الذي تعنيه الحياة داخل حدود الحياة؟

الإجابة بـ«لا أدري» لا تعني عدم التفكير في ما هو خارج حدود العقل، بل تعني أن السؤال يجبِ أن يبقى مفتوحًا أمام الجميع، وأن التفكير فيه يجب أن يبقى متاحًا للجميع، وذلك على قدم المساواة الكاملة بين الجميع، وهي المساواة القائمة على المبدأ الديكارتي الذي يقول، إن العقل أعدل الأشياء قسمة بين الناس. ما يعني بالاستنباط المنطقي أن حدود العقل بدورها قسمتها عادلة لدى جميع الناس.

ثمة ملاحظة جديرة بأن تثار:

إن الذي يجعل الإجابة بـ«لا أدري» باعثة على الحيرة، هو الإحساس بأنها قد تكون مجرّد أسلوب مهذَّب لإنكار أن يكون للحياة أيّ معنى ممكن، فنكون بذلك البنحو قد انتقلنا من العدميات الدينية حيث لا قيمة للحياة سوى كونها معبرًا للآخرة، إلى نوع من العدمية الدنيوية حيث لا معنى للحياة، وبالتالي لماذا نفكّر في معنى الحياة؟ غير أن هذا غير صحيح لأن الحداثة تعتبر أن معنى الحياة ليس يقينيات ثابتة تقتل المعنى إذ لا تعود لنا حاجة

للتفكير فيه -طالما أنه معطى ويقيني-، بل إنّ المعنى يكمن في التساؤل عن المعنى.

إنّ كل شيء يتوقّف على المعنى الذي نفهم به المعنى!

فتجنشتين الذي عاش

كانت وصية فتجنشتين على فراش الموت متواضعة جدًّا، فقد أوصى ممرضته قائلًا: «اخبريهم أني عشت حياة رائعة».

هل كان يعني ما يقول؟

في واقع الحال مات فتجنشتين معدَم الحال، ما جعل الكثيرين يظنون أن وصيته ليست سوى من باب السخرية المرّة من حياة لم تخلُ من تقلبات وتعقيدات: فقد تسببت الحرب العالمية الأولى في إصابته باكتئاب سيداويه «بالتي كانت هي الداء»، حيث انخرط للقتال في صفوف جيش بلده، النمسا، وقاتل في الصفوف الأمامية، ووشِّح بوسام الشجاعة، وتعرّض لتجربة الأسر بكل مآسيها، لكنه خاضها بشجاعة شهد له بها رفاقه في الأَسر، وقبل ذلك كان قد تخلّى عن نصيبه من إرث عائلته الغنية لإخوته، واكتفى بالعمل بستانيًا ومعلّمًا في القرى، ومُنح الدكتوراه بعد انقطاع طويل، نظير إنتاجاته العصامية في المنطق وفلسفة اللغة، مستفيدًا من مرونة أنظمة التعليم في الجامعات الغربية، وبعد فترة قصيرة من التدريس في الجامعة استقال بنحو مفاجئ، وفضَّل أن يعيش حياة بسيطة لأجل التأليف، وظل يمارس مهنًا متواضعة حتى بعد أن أصبح من بين أهم فلاسفة المنطق واللغة والأخلاق في القرن العشرين.

فهل كان يعني ما يقول حين قال لممرضته: أخبريهم أني عشت حياة رائعة؟

عادة ما تكون كلمات الاحتضار هي الأكثر صدقًا طالما ليس بينها وبين الذات حجاب. لذلك، رغم مصاعب الحياة، فقد كان فتجنشتين مقتنعًا في قرارة نفسه بأنه عاش حياة رائعة بالفعل.

ما الذي تعنيه حياة رائعة؟

وهل يمكن لعبارة «حياة رائعة» أن يكون لها معنى محدّد بالنسبة لفيلسوف كان يعتبر مشكلات الفلسفة مشكلات لغوية بالأساس؟

حسنًا، سيكون هذا السؤال مفتاحًا لاختبار الإشكال الأساسي لهذا الكتاب:

ألا يمكننا أن نعتبر كل الأسئلة حول «معنى الحياة» مجرّد مشكلة لغوية يمكن حلها باللغة وداخل اللغة؟

إذا تمكنّا من الإجابة بـ«نعم» فسنكون قد حصرنا مجال الإجابة عن الإشكال، بحيث لا يبقى أمامنا سوى أن نبحث عن حل المشكلة في مستوى اللغة!

لكن، لحسن الحظ -أو لسوئه- ستكون الإجابة بنعم نسبية إلى حد بعيد طالما الحياة لا تُعاش في اللغة، إلا أنّ الإجابة بـ«لا» ستجعلنا نخطو خطوة إضافية.

داخل حدود اللغة، يثير الأسئلة حول معنى الحياة ابتداء مشكلات لغوية لا يمكن إنكارها. إنها تطرح مشكلات لغوية أساسية حول معنى المعنى. ما الذي نقصده بالمعنى؟ هل نقصد القيمة، الهدف، الغاية، الجذوى، الرهان، العلة، السبب، الجوهر،

أم ماذا؟ وما الذي تعنيه تلك الكلمات: حقائق متعالية، حقائق أخرويه، حقائق ما ورائية...؟

يبدو أن جانبًا من المشكلة يكمن في اللغة بالفعل:

ما الذي نقوله باللغة، وما الذي تقوله اللغة؟

انطلاقًا من اللغة يبدو السؤال حول معنى الحياة، سؤالًا بلا معنى، طالما عبارة «معنى الحياة» لا تحيل إلى أي موضوع. يشبه الأمر أن يسألنا أحد الفضائيين عن مذاق الطعام الذي يتناوله سكان الأرض؟ فيكون السؤال بلا معنى طالما عبارة «مذاق الطعام» لا تشير إلى أي موضوع، أو تجربة، أو تصوّر ذهني، فلكل نوع من الطعام مذاقه الخاص، بل الأرجح أن لكل وجبة مذاقًا خاصًا، هذا عدا عن الاعتبارات الشخصية للمتذوق. كذلك هي الحياة ليس لها معنى عام، بل لكل حياة معنى خاص. بإمكانك أن تسأل أي شخص عن الهدف الذي يحدّده لحياته، فيكون عندها للسؤال معنى، لكنك لا تستطيع أن تسأله عن هدف الحياة عامة. لأنه، في هذه الحالة، سيقدّم أجوبة لا تحيل إلى أي موضوع، أو سيقدّم أجوبة قد تكون بلا معنى بالنسبة إليك، أو سيقول لا أعرف، أو يرى أنّ السؤال بلا معنى.

لكل طعام مذاق خاص قد نصفه ونتكلّم عنه، وبإمكاننا أن نحكم على جودته. لكن عبارة «مذاق الطعام» لا معنى لها، ولا يمكننا أن نقول عنها أي شيء، ولا أن نتصوّر أي شيء، ولا أن نصدر أي حكم. كذلك هي الحياة، فبدل أن نضيّع الوقت في الكلام عن المعنى العام للحياة، والذي سيكون كلامًا بلا معنى،

يجب الكلام عن حياة لها معنى، بحيث يمكننا أن نحكم على جودة المعنى لحياة محدّدة مثلما نحكم على مذاق وجبة بعينها من وجبات الطعام.

وكما أن مذاق وجبات الطعام هو نتيجة لما يدخل في تكوينها ولخصوصية الطبّاخ، فإن معنى الحياة لا يُعطى بل يُبنى.

هذا ما يمكننا أن نصطلح عليه بالمعنى الحيوي.

كيف يُبنى المعنى الحيوي، وما هي معايير جودة البناء؟

إن عبارات من قبيل، فتجنشتين يقاتل في الحرب، أو يعمل بستانيًا، أو يتخلّى عن ثروته لإخوته، هي عبارات تحيل إلى موضوع معين، يمكن تجسيده في الواقع وتصوّره في الذهن، وبهذا المعنى يكون لها معنًى لغويٌّ، لكنها لا تحدّد المعنى الحيوي، ذلك أن المعنى الحيوي لا يتحدّد انطلاقًا مما تشير إليه اللغة، بل انطلاقًا مما تريده الحياة. إن السؤال الحقيقي هو ما الذي يعنيه التجنيد، أو البستنة، أو التخلي عن الثروة، في العلاقة مع الحياة وبناء الذات، بمعنى تحقيق النمو الوجداني الذي تطلبه الحياة؟

لقد عمل فتجنشتين بكدح الفلاح، وشجاعة الجندي، وبيداغوجية المعلم، وفصاحة الأستاذ الجامعي، وعزلة المتأمل، وصدق الصديق، وقناعة العفيف. ولقد فهم مبكرًا، وقبل فوات الأوان كما يحدث للكثيرين، أن المناصب الكبيرة، والألقاب الفاخرة، لا تعني للحياة أي شيء؛ فالحياة بذكائها السري تفضِّل بستانيًا يغرس أزهار الحياة على بروفيسور يعيش عالة على الحياة، ولذلك تجازي الأول بفرح أكبر، وتعاقب الثاني بتوتر أكبر.

إنها حكاية آلاف الأشخاص الذين تركوا أموالًا لا تُحصى، أو سلطة لا تبلى، لأجل أن يتصالحوا مع الحياة.

تريدنا الحياة أن ننمو، قالها سبينوزا، ونيتشه، وبرغسون، وكارل يونغ، ويقولها اليوم معظم الفلاسفة، وهي الحقيقة الوحيدة التي تؤكّدها الحياة.

حين نحقّق النمو الوجداني المتكامل تمنحنا الحياة في المقابل مشاعر الطمأنينة والارتياح، حتى ولو كنا في أرذل العمر، وهي التجربة التي عاشها فتجنشتين نفسه إلى الرمق الأخير، حين قال لممرضته ما قاله عن عيشه حياة رائعة.

لقد عاش كل الظروف، عاش في أقصى الظروف، عاش على تخوم الموت والحياة.

لم يهرب من قدره في أي لحظة من اللحظات.

قرّر أن يتوجّه بنفسه إلى أشباحه المخيفة بدل أن يهرب منها: لما أخافته الحرب، انخرط فيها ليتحرّر من الخوف، لما أخافه الفقر ترك ثروته ليتحرّر من الخوف، لما أخافه فقدان المنصب تركه ليتحرّر من الخوف.

لم يقايض الحياة بأي شيء من الأشياء.

مات خاوي الوفاض.

لكنه..

لكنه عاش.

الفصل الثالث

الحياة وإرادة النمو

ما الحياة؟

حاولت وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) صوغ تعريف للحياة يستوعب كل أشكال الحياة المحتملة، بما فيها احتمال وجود أشكال غريبة من الحياة في أقاصي المجَرّة أو أقاصي الكون، فاقترحت التعريف التالي: «الحياة نظام كيميائي قابل للصيانة الذاتية والتطوّر الداروينى».

الحياة نظام كيميائي، هذا واضح بلا لبس. ثم إن قوانين الكيمياء هي الحلقة الوسطى بين قوانين الفيزياء وقوانين الحياة. فالخلية التي هي الوحدة الأساسية للأحياء، تتألف من جزيئات كيميائية، غير أن هذه الجزيئات تتألف بدورها من ذرات فيزيائية، وعند هذا المستوى المجهري تختفي الحياة، وينسحب علماء الأحياء، ولا يبقى سوى علماء الكوانتوم. فأين اختفت الحياة؟

وقبل أن تظهر الحياة أين كانت مختبئة؟!

لعلها كانت تمثل نوعًا من الطاقة الكامنة وغير المتشكّلة، نوعًا من الوجود بالقوة بلغة أرسطو، غير أنها لم تكن أي شيء، ولم تكن في أي شيء؛ فلا شيء يمثل جوهر الحياة أو عنصرها الرئيسي.

إن ما يمنح للخلية الحياة هو نظام العلاقات بين جزيئاتها. لذلك جاء في تعريف وكالة ناسا: «الحياة نظام كيميائي». ذلك النظام الذي يصون نفسه ويتطوّر، هل ينبثق فجأة كحادث عرَضي

في مجرى المادة العمياء، أم إن المادة العمياء ليست عمياء تمامًا بل تحتوي على نوع من الاندفاع الحيوي الكامن؟ هنا يكمن سر الحياة، أو لغز الحياة، الذي يسميه شوبنهاور بإرادة الحياة، باعتبار أن الاندفاع إلى الحياة يمثل نوعًا من القوة الكامنة في طبيعة الأشياء.

ليست الحياة جوهرًا أو شيئا جوهريًّا، بل علاقات معقدة وطارئة، بيد أن الأشياء كلها كذلك. فالمادة نفسها ليست جوهرًا بل علاقات بين جسيمات أولية يخفت فيها الطابع المادي أو ينتفي: البروتونات، الإلكترونات، الكواركات... إلخ. هذا ما يجعل معظم الكون فراغًا عظيمًا، ووفق بعض فرضيات فيزياء الكم لعلّ الكون خرج من الفراغ العظيم وسيعود إليه في نهاية الملحمة، ولعل «لا شيء» هو الجوهر الحقيقي لكل الأشياء.

وفي الآن نفسه، قد يكون الفراغ تعبيرًا غير دقيق عن طاقة ما.

بمقاييس هذا الكون الذي يغلب عليه الفراغ، فالمادة علاقات نادرة، هشّة، ومعقّدة، مثل العلاقات الكيميائية، والحياة علاقات أكثر ندرة، أكثر هشاشة، وأكثر تعقيدًا، مثل العلاقات العاطفية، بل إنها مثل النزوات العابرة!

قانون الفيزياء يتجه بكل شيء إلى التلاشي. قانون الحياة يتجه بكل شيء إلى النمو والتكاثر. غير أن قانون الحياة جزء من قانون الفيزياء، لذلك تنتهي الأجساد الحية إلى التلاشي، أي الموت، امتثالًا لقوانين الفيزياء والكيمياء. ليس هذا ما تريده الحياة، إنها تخسر مع كل كائن يموت معركة من معاركها، لكنها لا تريد أن

تخسر الحرب في الحساب الأخير، ولأجل ذلك تضع أجندة خاصة تتجاوز إرادة الفرد، وتتخطّى حدود حياته الشخصية.

الحياة تجربة عابرة، مثل النزوات.

لكن..

لو لم تكن الحياة تجربة عابرة فهل كانت تستحق أن تُعاش؟!

ذروة السؤال

لعلي الآن على استعداد لكي أخطو خطوة إضافية في التعاطي مع السؤال: لماذا نعيش؟ لن تكون الإجابة كاملة، أو على الأقل ليس بعد، لكنها ستكون من نوع الأجوبة التي تبرّر السؤال. ستكون ذروة السؤال. هذا لا يكفي لكنه يفي بالغرض، والغرض الآن أن نستكمل التحليل:

نعيش لأن كل شيء في الكون يندفع إلى الحياة، داخل بيئة تتّجه إلى تدمير الحياة.

إن انبثاق الحياة وتطوّرها على الشكل الذي تطوّرت فيه، لا ينجح إلّا نادرًا، وها قد نجح معنا. نجاح غير نهائي، بل مؤقت، أو إلى حين، طالما أن قوانين الفيزياء والكيمياء لا تزال أقوى من إرادة الحياة بفارق كبير في موازين القوى، لكنه نجاح.

بحسابات القوة فإن الحياة مهزومة مسبقًا، والمسألة هي مسألة وقت، لكن من حسن الحظ أن حسابات الذكاء والحكمة قد تُعوِّض حسابات القوة، ولو نسبيًا أو تدريجيًا. ولذلك من الحكمة أن نعيش من دون خوف، وخاصة من دون جعل حتمية الموت، أو حتى حتمية انتهاء الحياة بكاملها، أمرًا يجعلنا نُعرِض عن الحياة.

الحياة مقاومة، لكنها مقاومة ذكية، بمعنى أنها تستطيع أن تقوم بتحسين آلياتها باستمرار.

تلك هي القاعدة العامة التي نستطيع أن نتكلّم عنها بقدْرٍ كافٍ من الثقة والبرهان، لكن هل معنى ذلك أننا أغلقنا القوس؟ هل أجبنا بما يكفي، وكما ينبغي؟

هل نكتفي بالقول: نعيش لأن الأمر نجح معنا هذه المرة. ونتوقّف عن البحث عن أسباب هذا النجاح؟ وماذا لو كان نجاحًا مؤقتًا بالفعل؟

قد يكون كذلك، لكنه يبقى نجاحًا مذهلًا. مذهل جدًّا إلى درجة أننا لا نعيش وحسب، بل نعيش ونريد أن نعرف، لماذا نعيش؟!

السؤال مبرَّر وضروري، وهو ما يصنع الفرق بين الإنسان والحيوان.

ذلك أن الكائنات الحيّة كلها تعيش، لكن وحده الإنسان يطرح السؤال، لماذا نعيش؟

الحياة مقاومة

قوانين الفيزياء والكيمياء تتحدّث عن أنّ كل الأشياء تتجه إلى التلاشي. فما إن يظهر شيء ما حتى ينطلق في صيرورة منذ اللحظة الأولى نحو التلاشي. يبدأ تحلل الكواكب والنجوم مع ولادتها على سبيل المثال، صحيح أن صيرورة تلاشيها تستغرق مليارات السنين، لكنها تستغرق لدى الأجسام الأقل كثافة زمنًا أقل، وأحيانًا أقل بكثير. ومع أنّ صيرورة حياة أي كائن تتجه إلى التلاشي، فإن

قوانين الحياة تتجه بكل الكائنات إلى النمو، فما إن يولد أي كائن حي حتى يندفع إلى النمو والتطور والتكاثر، إنها صيرورة من نوع آخر، صيرورة تتجه إلى الدوام والاستمرار، هذا على الأقل في مستوى «النوايا الفعلية». هكذا يعيش الكائن في حالة من النمو إلى أن تأتي لحظة الشيخوخة، وهي ستأتي لا محالة، ثم تعقبها لحظة الموت بيقين نهائي. ذلك لأن قوانين الفيزياء والكيمياء لا تزال تحتفظ بكلمتها الأخيرة، والتي هي التلاشي. كما أن قوانين الحياة جزء من قوانين الفيزياء والكيمياء. وهذا اعتبار أساسي.

يشبه الأمر أن يقذف الطفل بالكرة إلى الأعلى، بحيث تتحرّك الكرة بفعل قوة الدفع في الاتجاه المعاكس لقوة الجاذبية، لكن لا يتأخر الوقت كثيرًا قبل أن تستعيد الجاذبية زمام المبادرة.

هنا تظهر الهشاشة الأصلية للحياة.

لكن...

هنا أيضا تظهر قدرة الحياة على المقاومة، وقدرتها على التخطيط للمدى الزمني الطويل، وخاصة في رهانها على تعاقب الأجيال، وتطوّر الأحوال.

لا يرحِّب الكون بالحياة

يُمثل الكون من وجهة نظر الحياة بيئة غير آمنة، كما أن الحياة من وجهة نظر الكون تُمثل حالة نادرة بالفعل، والأمر يبقى كذلك حتى ولو وُجدت بعض أشكال الحياة خارج الأرض. ذلك أن قُطر مساحة الكون المرصود الآن يبلغ نحو مئة مليار سنة ضوئية، قد

يتضاعف في العقود القليلة القادمة، وعدد المجرّات المرصودة الآن يتجاوز أربعمائة مليار، قد يتضاعف في العقود القليلة القادمة، وتضم كل واحدة ملايين المجموعات الشمسية، وفوق هذا كله يبتلع الفراغ معظم مساحة الكون، إلى درجة أن كل الأشياء تبدو كأنها مجرّد استثناءات وسط فراغ كوني يبدو كأنه القاعدة، كأنه الأصل، كأنه المصير.

إنه نوع من التحدي المهيب أمام الحياة العاقلة. غير أن التحدّي لا يقف عند هذا الحد، فالأرض بدورها لا تمثّل بيئة آمنة، حيث تعرّضت الحياة فيها على الأقل لخمس موجات انقراض كبرى جرّاء ضربات النيازك والمذنبات والفايروسات، كادت في إحدى المرّات أن تقضي على كل أشكال الحياة. كما ليس مستبعدًا أن تكون الحياة قد انقرضت في بعض الكواكب الأخرى.

هذا ما يجعل الحياة تبدو كأنها فلتة بالفعل، لكنها مثل فلتات اللاشعور، تعبّر عن نيات كامنة في ظلمات اللاوعي.

كأنَّ الحياة فلتة

كأن الحياة فلتة في كون يبدو كأن لا غاية له سوى أن تدور الكواكب حول الشمس، وتدور الإلكترونات حول الأنوية، وتدور المجرّات حول الثقوب السوداء. أما أن يبيض الحمام فلا يحدث هذا إلّا على ظهر شظية واحدة -هذا ما نعرفه حتى اليوم- من بين مليارات مليارات مليارات المليارات من الشظايا المتطايرة في رحلة انفجار الكون «بالعرض البطيء».

هناك تعديل جزئي في التوصيف قد يغير مشاعرنا حول الحركات الدائرية في مستوى الأفلاك:

على الأرجح ستكون الحركات الدائرية في الكونيات مجرّد تعبير عن حالة من السقوط الدائم، سقوط يتكرّر بنحو دائري بسبب علاقات الكتلة والسرعة والمسافة. حين تساءل نيوتن، لماذا سقطت التفاحة ولم يسقط القمر؟ لم يكن يعلم بأن القمر في حالة سقوط دائم ومتكرّر نحو الأرض. قوانين الجاذبية بين الكتل الكبرى في المجموعات الشمسية بأسرها تعمل بهذا النحو. حتى المجرّات الحلزونية التي تدور بسرعة فائقة حول مراكزها (ثقوب سوداء في الغالب) فهي تشبه دوران الماء الكثيف حول حفرة يتدفق فيها.

كل المدارات الدائرية للأجرام السماوية هي تعبير عن حالة من السقوط الدائم والمتكرّر. غير أن الحياة كما سبق القول تتحرك في اتجاه الصعود والارتفاع، مثل النخيل، أو بالأحرى تلك هي نواياها الكامنة قبل أن تصطدم بقوانين الجزيئات والجسيمات.

هنا تكمن الهشاشة الأصلية للحياة كما قلنا، لكن هنا أيضًا تكمن عظمتها.

تبدو الحياة كأنها فلتة نادرة بالفعل، لكنها ما إن تظهر حتى تندفع للانتشار في المكان والاستمرار في الزمان، من دون انقطاع، من الجراثيم البدائية إلى القردة العليا. ولأن التعويل على التكيّف مع الطبيعة لا يكفي لتأمين البقاء، فقد نشأ العقل وبالتالي نشأ الإنسان العاقل، نشأ الذكاء وبالتالي نشأت الحياة الذكية. ذلك أن الجسد الذي

يستطيع أن يضمد جروحه الصغيرة بكل عفوية وتلقائية، سيحتاج إلى العقل والعلم والمعرفة والحكمة لكي يواجه جروحه القاتلة.

الحياة جرح مميت، ولذلك يجب التعامل معها بكثير من الحكمة والذكاء، أملًا في التقليل من النزيف، وتأجيل النهاية ما أمكن ذلك، عن طريق العمل على تأجيلها رويدًا رويدًا، وجيلًا بعد جيل. ذلك هو رهان الحياة، ومهمة الحياة الذكية.

لقد انبثق العقل والذكاء مباشرة من غريزة البقاء، والتي سبق لها أن تطوّرت على امتداد تاريخ الحضارة الإنسانية، وانتقلت تدريجيًا من الكفاح لأجل بقاء القطيع في زمن الكهوف والأدغال، ثم العشيرة في زمن القبائل والإمبراطوريات، ثم الوطن في زمن الأمة والدولة الحديثة، ووصولًا إلى الكفاح لأجل بقاء النوع البشري في زمن العولمة، أو هكذا يُفترض.

طاقة الحياة

نعيش لأنّ الحياة التي نشأت وتطوّرت بصعوبة، تسعى إلى الاستمرار والانتشار والازدهار في كل أبعاد الزمان والمكان، تسعى إلى توسيع مجالها الحيوي أفقيًا وعموديًا، وفي كل الاتجاهات، تسعى للذهاب إلى أبعد مدى ممكن، تسعى إلى الإفلات من حكم الإعدام المدوَّن في قوانين الفيزياء والكيمياء قبل أن يُدوَّن في الجينات، تسعى إلى مقام الألوهية في المقام الأخير، وهي تنتظر منّا أن نساعدها في هذا المنحى، كل واحد منا بحسب قدرته وقدره.

نعيش لأنّ الحياة التي ظهرت في بيئة جاءت مناسبة لظهور الحياة فيها، ولكن الكائنات، وعلى رأسها الإنسان، راحت تستنفد كل آليات التكيف الممكنة. إن التكيف الذي يساعد الجراثيم على البقاء في أقسى الظروف لا يسعف الثدييات إلّا قليلًا. لذلك سيكون ظهور الحياة الذكية إيذانًا بتغيير الحياة لخطتها، حيث لم تعد تقتصر على التكيف مع المجال الحيوي، بل صارت أكثر طموحًا وجرأة، بحيث تسعى إلى تكييف المجال الحيوي وتحويله، تدريجيًّا وبنحوٍ كاملٍ.

تحويل المجال الحيوي هو المبدأ الذي قامت عليه الحضارة عبر مسارها الطويل، من أزمنة الكهوف إلى زمن ناطحات السحاب، ومن عصور مناعة القطيع إلى عصر التعديل الوراثي.

هناك أخطاء في الطريق، صحيح، بيد أنّ هذه الأخطاء كانت جزءًا من تطوّر الحياة إلى ما نحن عليه.

الحياة الذكية هي ذكاء الحياة في آخر التحليل.

نعيش لكي يستعمل كل واحد منا ذكاءه بما يكفل تحسين جيناته، ويضمن نموه الجسدي، والعقلي، والوجداني، في كل الظروف، وحتى في أسوأ الظروف، ولكي يشجع الآخرين من حوله على مواصلة النمو في كل الأحوال، وحتى في أسوأ الأحوال، وبذلك النحو يساعد كل واحد منا الحياة على تحقيق غايتها في النماء والارتقاء.

ذلك ما تطلبه منا الحياة، الحياة بألف ولام التعريف، الحياة الكونية.

إلى أي مدى يمكن أن يبلغ نمو الذات، تطور الحياة، وتقدم التاريخ؟

هل هناك مدى محدّد أم إننا نعيش داخل حكاية مفتوحة، بنهاية مفتوحة، أو بلا نهاية؟!

إذا كان الأمر كذلك ألسنا معرَّضين للتيه والتيهان في أي لحظة من اللحظات؟

أليست الأصوليات والشموليات والعدميات مجرد معالم على طريق التيه والضلال؟

لقد انهارت النظرة الغائية إلى الوجود، والتي لم تكن تجيب فقط عن السؤال إلى أين نسير وحسب؟ بل كانت فوق ذلك ترسم السقف النهائي للسير (الشيوعية، الاشتراكية، الرخاء، السلام، الخلاص الديني، القيامة، إلخ). لكن مع انهيار مبدأ العلة الغائية انبثق سؤال جديد: إلى أي مدى يمكن الذهاب في تطور الحياة، تقدّم التاريخ، ونمو الذات؟

بخصوص منافسات ألعاب القوى على سبيل المثال، هناك توقعان: إما أن لقدرات الجسد البشري سقفًا نهائيًا لا يمكن تجاوزه، وستتوقّف الأرقام القياسية عند حدٍّ معينٍ وبالتالي تنتفي الفرجة ما لم يخضع الإنسان للتحسين الوراثي، وهو ما سيتحقق ولو بعد حين؛ وإما أن المآل مفتوح على الدوام بنحو طبيعي من دون حاجة إلى أي تعديل وراثي، طالما -يقول سبينوزا- لا أحد يعرف ما الذي يستطيعه الجسد؟

إلّا أن فترة من عمر الرياضيين تأتي لا محالة، يصبح فيها الرهان ليس تسريع التطور الجسدي بل تبطيئ التدهور، هنا أيضًا قد تتحقّق نتائج غير متوقّعة، ينطبق عليها ما يقوله سبينوزا عن الجسد، لا سيما عندما يتسلح الجسد بالعلم والحكمة، إلّا أن الموت لا يمكنه أن يتأخّر. فهل يَصدُق الأمر نفسه على النوع البشري والذي سيصل إلى الشيخوخة والتدهور مهما بلغ من تطور؟

هناك من يجيب بالإيجاب، طالما لكل بداية نهاية، سواء بفعل قوانين المادة أم تعاقب الكوارث، لذلك من الحكمة تبطيئ التقدّم طالما سيعقبه التدهور لا محالة. تلك إجابة حركات اجتماعية عديدة على منوال «اللاإنجابية»، «اللانموّ»، «الانقراض الإرادي للنوع البشري»، «غلاة البيئة»، وغيرها.

تنتمي تلك الحجة إلى رد الفعل الأوّلي على انهيار العلة الغائية، ردّ فعل شوبنهاور بالذات، وتبدو كما لو أنها مقنعة نظريًّا، لكنها عمليًّا قد تدمر إرادة الحياة نفسها، ومن ثم تنهار الحضارة وينحطّ النوع البشري. هذا ما انتبه إليه نيتشه، فحاول العمل على تخليص شوبنهاور من عدميته الكامنة، بل تبدو فلسفة نيتشه كما لو أنها خلاصة ذلك الجهد، ولأجل ذلك شبّه نيتشه الإنسان -على لسان زرادشت- بالحبل المنصوب فوق الهاوية، حيث في كل توقّف أو تردّد خطر في خطر!

إذا توقّف النوع البشري سيتدهور عاجلًا أم آجلًا، ستنهار الحياة الذكية، والتي هي طليعة الحياة على الأرض، وحاملة لوائها، كما سيتبدّد حلم نشر الحياة خارج نطاق الأرض، وهو

الحلم الذي يتّخذ شكل مشاريع علمية عملاقة تتجه نحو إعمار الفضاء الخارجي.

ذلك مع الأخذ في الاعتبار أن فرضية نيتشه حول «الإنسان الأعلى» لم تعد كافية لدرء العدمية، طالما ترهن الحياة بكوكب الأرض حصرًا. إن الإخلاص للأرض الذي دعا إليه نيتشه، يجب أن يتحوّل إلى إخلاص للكون بأكمله حيث يجب أن تمضي الحياة.

نحو حضارة متعدّدة الكواكب، أو أرخبيل الفضاء

نحو حضارة متعدّدة الكواكب، إنه رهان اليوم، رهان الغد، ورهان بعد الغد. ذلك أن النوع البشري عليه ألّا يضع بيضه كله في سلة واحدة، طالما لا يوجد مكان في منأى عن ضربات الانقراض. تتجه قوانين الفيزياء بكل شيء إلى التلاشي، ولا وجود لمكان آمن يمكن التحصّن فيه. لذلك يجدر بالنوع البشري أن ينتشر في كل مكان، وأن يصل إلى أي مكان يستطيع الوصول إليه.

ذلك هو رهان الحياة في سعيها الراهن إلى الاستمرار والازدهار والانتشار في كل أبعاد المكان، بدءًا من الأرض طولًا وعرضًا خلال آلاف القرون التي مضت، ثم ارتفاعًا إلى الكواكب والأقمار والمحطات الفضائية، نحو أعالي الكون وأقاصي الممكن، خلال القرون القادمة، ومحاولة استكشاف لتلك الكواكب المترامية والتي قد تُعدّ بالآلاف، أو الملايين، أو أكثر. وذلك كله بمعزل عن وهم الغاية ووهن العدمية.

لقد ساعد افتراق اليابسة إلى قارّات وجزر، وافتراق الإنسان إلى «شعوب وقبائل»، على حماية النوع البشري من خطر الانقراض خلال آلاف السنين التي مرّت، لا سيما في مواجهة الجائحات والنيازك التي أهلكت معظم الأنواع على وجه الأرض. كما كان حدث انهيار «برج بابل» تعبيرًا رمزيًّا عن خطة الحياة في تشتيت البشر وبالتالي إنقاذهم، على طريقة «تفرّقوا تُرزقوا».

هي الخطة نفسها في أفق الحياة الكونية، كما يطمح أن ينفّذها الذكاء البشري، أو كما ينبغي:

عندما ينتهي عمر الأرض، عندما ينتهي عمر مجموعتنا الشمسية، بل قبل ذلك بزمن طويل، عندما يرتطم كويكب مدمر بكوكبنا، أو يهجم فايروس أشدّ فتكًا، ربما يكون أحفادنا قد وجدوا مكانًا آخر، وربما يكونون متفرقين في أكثر من مكان من الكون، فلا أحد يعرف أيّ مكان هو الأكثر أمانًا. حيث لا يمكن أن ينجو الجميع يجب ألا يهلك الجميع. تلك قاعدة أساسية من قواعد الحياة.

الهدف المعلن اليوم إنشاء مستوطنات على بعض الكواكب والأقمار والكويكبات داخل المجموعة الشمسية، وبعض المحطات الفضائية، بحيث تتمتّع كل مستوطنة فضائية بقدر من الاكتفاء الذاتي من حيث الطاقة والغذاء، أو تعتمد على موارد الفضاء الخارجي (طاقة النجم المركزي، معادن الكويكبات، الماء في الحالة الصلبة أو الغازية على بعض الكواكب والأقمار، إلخ)، بما يجعلها تستغني عن موارد الأرض في يوم من الأيام. بعد

أن يتحقّق هذا الهدف الأولي ستصبح طرق السيادة على المجرّة سالكة، ما لم يظهر منافسون آخرون، أو من نوع آخر!

كل هذا النوع من الاحتمالات كانت إرهاصات، وربما أحلام، لا تستند إلى وقائع. بل مجرّد إرهاصات وحكايات عن عوالم أخرى لا تقوم على أيّ إثبات علمي، أما اليوم فقد بات هذا البحث ممكنًا بسبب التقدّم العلمي الكبير في اكتشاف الكون، وسيكون أكبر مع الأجيال اللاحقة. بل إننا نجد اليوم عددًا كافيًا من المتطوعين المستعدين للبحث عن مكان للحياة خارج الأرض. لم يعد البحث عن الجنة هو قضيتهم كما كان الحال مع سيطرة الأفكار الدينية. لعلهم لا يبحثون عن الجنة تحديدًا، لكنهم يريدون الذهاب إلى حيث لم يذهب أي أحد. الحقيقة أن الأمر لا يتعلّق بإرادتهم الشخصية وحسب، بل إنها إرادة الحياة، أي طاقة الحياة الكونية!

إن كان صحيحًا أن لا أحد يعرف ما الذي يستطيعه الجسد، بحسب سبينوزا، فلا أحد يعرف ما الذي يستطيعه النوع البشري، ربما بعد مئة عام، أو ألف عام...! لا أحد يعرف ما الذي يستطيعه ذكاء الحياة، والحياة الذكية.

لا أحد يعرف ما الذي تستطيعه الحياة؟

اندفاع الحياة نحو التقدم

كلنا نأمل أن يعيش أبناؤنا حياة أفضل من حياتنا. ذلك هو العزاء الوحيد الذي تمنحه لنا الحياة حين نعي بأننا فانون لا محالة.

لكن خلف ذلك العزاء المكلف، والذي قد ينهك الآباء من أجل مستقبل لن يعيشوه، تختبئ الخطة السرية للحياة في سعيها ليس فقط إلى الاستمرار، بل إلى النمو والازدهار أكثر فأكثر، ما يجعل من كل جيل مجرّد قنطرة لعبور الجيل التالي، لأجل أن تنمو الحياة في النهاية.

أبناؤنا يحبوننا بلا شك -ولو أن بعض الشك لا يفسد الود- وفي حال موتنا سينثرون على قبورنا كثيرًا من الأزهار، لكن الحقيقة الهيجلية أنه لن يمضي وقت طويل حتّى يشقوا سكك محاريثهم على رفاتنا، لكي يأكلوا ويعيشوا، ويرقصوا أيضًا.

الرقص صلاة الحياة.

مثلما أن التفكير هو صلاة العقل.

خلف مبدأ التقدّم التاريخي تقف إرادة الحياة بخطتها التي لا تكترث بأحلامنا الموضعية. فلا يضرّ الشجرة في شيء أن تسقط أوراقها الذابلة، بل العكس تمامًا، فذلك السقوط سينفعها.

قد تحزن ورقة على سقوط ورقة جاورتها لوقت قصير، لكن الشجرة، وبفعل ذلك السقوط، تعود لتنمو وتزداد ازدهارًا.

موت الأوراق هو ما يجعل الأشجار تتغير في جمالها وفي نموّها.

لذلك...

حين يقصر الآباء والأمهات نظرهم على الأفق الزمني للأبناء، وهو أفق ضيق، فإنهم يكابدون عناء الخوف من أن تكون حياة الأبناء أقل جودة أو أسوأ حالًا. هنا يكمن شقاء الآباء والأمهات،

وبالتالي ندمهم المكنون وعنفهم المجّاني أحيانًا حين يشدّدون الضغط على أولادهم ليتعلموا أو يعملوا أكثر منهم. لذلك سيكون ترويض غريزة الأبوة والأمومة لكي ترتقي -ولو بين الفينة والأخرى- إلى أفق التأمل في حياة أحفاد الأحفاد، فرصة للانتقال من ضيق الزمن الأسري القصير إلى سعة الزمن التاريخي الطويل، حيث نعلم بالحسّ التاريخي أن أحفاد الأحفاد بعد مئات السنين، سيعيشون حياة نبدو معها بدائيين، وهو ما ستتكفل الحياة بإنجازه. ذلك كله بمعزل عن كل النزعات الكارثية التي يحتفي بها من يخلطون بين نهاية حياتهم ونهاية الحياة. وما أكثرهم!

التحدي الباقي هو الخروج من ثقافات شاحبة، تجعل المرء ينظر إلى الغد، فيرى علامات الساعة وأهوال القيامة، ويخلط بين نهايته الشخصية ونهاية العالم، ويظن بأن خريف عمره هو خريف العالم. الخروج إلى ثقافة مبهجة، تجعل المرء يرتقي إلى وعي يتجاوز الأنا والذات لكي يتنسّم الهواء الآتي من المستقبل البعيد. يكفي أن يمارس المرء هذا التأمل بين الفينة والأخرى حتى تنتعش روحه، ولو كان في أراذل العمر. لأن الموت نفسه لا يحدث إلا في لحظة خاطفة، وحين يحدث فلكي تستمر الحياة.

التأمل في الحياة يجلب إلينا الشعور بطاقة الحياة الكونية.

هذا يعرفه معظم معلمي طرائق التأمل الآسيوية.

ولقد أدركه الكثيرون من الفلاسفة الذين نعيد قراءتهم اليوم، كما يدركه الكثيرون من فلاسفة اليوم.

أصل الخير والشر مرة أخرى

ليس تاريخ الخير والشر سوى تاريخ تعديل الحياة لخططها لأجل تفادي الإبادة والانقراض، وبإمكاني أن أستدلّ على ذلك بالأمثلة التالية:

في عصر الجماعات البدائية لم يكن التخلي عن العجزة والضعفاء سلوكًا مشينًا طالما كان استمرار الحياة يتطلّب أن ينجو الأقوياء، وأن تظل الجماعة في حالة جيّدة، وذلك في زمن كانت فيه الوحوش لا تزال تفترس البشر.

مع نشأة المجتمعات الزراعية التي كانت تزيد من الكثافة السكانية، وظهور الأمراض الفيروسية مثل الجدري والحصبة أو ربما فيروسات مرّت قبل ذلك، لم يكن نفي المصابين قرارًا ظالما، فقد كانت الحياة تتطلّب الحدَّ من تفشي العدوى بصرف النظر عن الكلفة في المستويات الشخصية، وذلك في زمن كان فيه الذكاء البشري لا يزال عاجزًا أمام أضعف الفيروسات.

لأجل ذلك أيضًا، لم تكن محاصرة المناطق الموبوءة بالأمر السيئ، وسيبقى الأمر على ذلك النحو طيلة العصر الوسيط، طالما الأولوية بالنسبة للحياة كانت كسر سلاسل انتقال الأوبئة والجائحات، وبالتالي حماية النوع البشري.

قد تبدو دوافع الحياة متناقضة في بعض الأحيان، لكنها هي نفسها في كل أحوالها. فالدافع الذي شجع المجتمعات البشرية على كرم الضيافة، هو نفسه الذي أشاع التوجّس من الغرباء. إذ

كثيرًا ما ساهم الوافدون في نشر فيروسات لم تكن المجتمعات المحلية قد اكتسبت إزاءها أي قدر من المناعة.

في العوالم القديمة لم يكن تزويج الصغار والتشجيع على الإنجاب سلوكًا سيئًا، فقد كان متوسط الحياة منخفضًا، وكان معظم المواليد يموتون في المهد، وكانت نسبة كبيرة من الأمهات يمتن أثناء الوضع. لذلك، ربحًا للوقت الذي لم يكن يكفي حتى لطفولة كاملة، فقد كان يتم توجيه العلاقات الجنسية مبكرًا نحو الإنجاب. كما أن سبي النساء من طرف المنتصرين في الحروب لم يكن سلوكا مستهجَنًا، طالما انتشار نسل المنتصرين من شأنه أن يخدم قضية الحياة بصرف النظر عن العدالة.

صحيح أن التجربة الإنسانية لم تكن تخلو من أعمال سيئة، بل وحشيّة، من وجهة نظر الحياة نفسها، من قبيل تقديم القرابين البشرية، وإعدام الأطفال، وبقر بطون الحوامل، ووأد البنات، لكنَّ كثيرًا من الأعمال التي نعتبرها اليوم سيئة ووحشية -وهي كذلك- لم تكن في وقتها كذلك، فقد كانت تخدم قوة الحياة في مواجهة التحديات التي عاشتها العصور السابقة.

اليوم، مع ارتفاع معدل عمر الإنسان والكثافة السكانية العالية، انتقل الهاجس من الكم إلى الكيف، وهذا طبيعي، فتم بذلك النحو التطبيع مع سياسة تحسين النسل، والتي كانت إلى وقت قريب تندرج ضمن «السياسات الخطرة». أما الآن، رغم بعض التحذيرات، لا يبدو أن مواطني العالم مستعدون لمقاومة مشاريع تحسين النوع البشري، والتي تنخرط فيها شركات عالمية عملاقة،

وعلماء من الصف الأول، وغايتها المعلنة إجراء تعديل وراثي للنوع البشري يسمح بطفرات كبرى في مستوى الذكاء، عمر الإنسان، الوقاية من الأمراض والشيخوخة، ونحو ذلك.

التقدّم التاريخي هو صيغة للتعبير عن نمو الحياة عبر مختلف عصور تطوّر الحضارة البشرية.

تطور العقل الأخلاقي، والذي بوسعه أن يميز بين الخير والشر، الفضيلة والرذيلة، الواجب والممنوع، هو صيغة للتعبير عن تطور خطط الحياة لأجل النمو والبقاء، وذلك في مواجهة مختلف التحديات التي اعترضت الحياة الذكية منذ ظهورها إلى غاية اليوم.

يقين أقل وثقة أكبر

لم يُصمَّم الكون لكي يحتضن الحياة. تلك هي الحقيقة العارية من الأوهام. لقد قلناها سابقًا، لكن هذا ما يجب أن نضيفه لكي نتمكّن من مواصلة التحليل:

الحياة هي التي اخترقت وبحثت عن مكان تنمو فيه، والحياة بطبعها تميل إلى الأمان والاستقرار، وهذا ما لا توفّره قوانين الفيزياء. غير أن انعدام الأمان ليس بالخبر السيئ بالضرورة، فلو كان الأمر على غير ذلك النحو لما تطوّرت الحياة، بل لبقيت في مستوياتها الدنيا. ليس التطور سوى كفاح الحياة في سبيل تقويم عجزها عن مواجهة مخاطر المحيط البيئي الطبيعي والكوني.

لقد نشأت الحياة داخل أوضاع غير مواتية، ثم كافحت طويلًا لأجل أن تتكيّف مع مختلف الأوضاع بدافع من إرادة البقاء،

نجحت أحيانًا وفشلت أحيانًا، وبهذا التمرين الشاق تحقّق التطور. وهذا ما يثبته انقراض أنواع كثيرة من الكائنات.

تلك هي الحكاية بإيجاز.

منذ ظهور أولى أشكال الحياة على الأرض لم يصمد في معركة التكيف لأجل البقاء سوى عدد قليل من الأنواع. معظم الأنواع انقرضت مبكرًا. الناجون قليلون، بل نادرون إلى درجة أن كل هذا التنوع الهائل الذي نراه في عالم الأحياء، ونتغنى به، يبقى ضئيلًا أمام الأنواع التي خسرت معركة البقاء.

الإنسان الذي ليس هو الكائن الأقوى، ولا الأسرع، لقد صمد بالتعويل على ذكائه في تحويل المجال الحيوي المعادي للإنسان إلى مجال لصالحه، تمامًا مثلما يفعل خبراء الرياضات القتالية في تحويل قوة الخصم إلى فرصة تمنحهم الانتصار.

إن كان العالم الآن يبدو كأنه وُجد لأجلنا، حيث الأحصنة لنركبها، والفحم لنشعله، والذهب لنتزيّن أو نتبادل به، فهذا لأننا ننسى أن العالم كما نعيشه ونعيش فيه هو نتيجة عمليات تكيف وترويض وتحويل طويلة الأمد قام بها الإنسان نفسه، وهي العملية التي جعلت العالم يبدو في النهاية كأنه موجود لأجل الإنسان.

هنا أيضًا تكمن حدود «دليل الصنعة» لدى ابن رشد!

كان سارتر يقول، مقذوف بنا في كوكب موحش! الحقيقة أكبر من ذلك، فكوكب الأرض نفسه مقذوف به، والمجرّة مقذوف بها، ولعل الكون بأكمله كذلك!!

مقذوف بنا بسرعة تتخطّى أسرع القذائف، وهذه بعض الأرقام

للتأمل والاستئناس: تتدحرج الأرض لتدور حول نفسها بسرعة تقارب 1670 كلم/ س، وتدور حول الشمس بسرعة تقارب 108000 كلم/ س، ثم تدور مجرة درب التبانة بسرعة تقارب 850000 كلم/ س، وتطير إلى المجهول بسرعة تقارب المليوني كلم/ س.

دع عنك الأرقام التي تعبّر عن قدرة الإنسان على إدراك الكون، وموقعه في هذا الكون، ويمكنك أن تتأمل في واقع الأمر:

كل شيء مقذوف به نحو غياهب المجهول.

وقدَر العقل، بهذا القدْر أو ذاك، أن يقتحم حدود المجهول، إلى هذا الحد أو ذاك.

سفينة البشرية

حال البشرية اليوم مثل أشخاص عاشوا زمنًا طويلًا محبوسين في سراديب سفينة لا يدركون من أمرهم شيئًا، فظنّوا بادئ الأمر أن السفينة راسيّة في ميناء آمن، وتغنوا بذلك الحال أمدًا طويلًا، ولما شعروا بأنها عائمة هائمة عادوا لكي يتخيلوا أنها تشق طريقها إلى «جزيرة موعودة»، قد تكون قريبة أو بعيدة، ونسجوا لذلك حكايات كثيرة ومثيرة. لكنهم حين أمعنوا التدقيق والنظر في أحوالهم، لم يروا أثرًا لبر الأمان، فأدركوا بالتالي أن الأمل الباقي هو التحكم في مسار السفينة، بيقين أقل، وثقة أكثر.

الفصل الرابع

قيمة الإنسان

غاية الإنسان أم الغاية منه؟

هل الإنسان غاية في ذاته كما يرى كانط، أم إنه جسر عبور إلى نوع أرقى كما يرى نيتشه، وكما تراهن مشاريع تحسين النوع البشري اليوم، وربما كما تخطّط الحياة بنفسها!؟

ينظر كثيرون من دارسي الفلسفة إلى كانط ونيتشه باعتبارهما عدوين لدودَيْن، والشيء نفسه يفعلونه مع فلاسفة آخرين كثيرين. من ثمة تستشري عدوى الانحياز المبكر والتي تعيق الفهم. لكن الحياة التي هي أعظم معلّم للحياة، وأحق بالإصغاء من أي معلم آخر، تنتظر منا أن ننمّي مهارة التركيب بدل إثارة نعرات الانحياز.

الحياة نفسها عبارة عن اندفاع بالغ التركيب والتعقيد.

أن يكون الإنسان سيد نفسه، فهذا هو رهان كانط ونيتشه معًا، بل رهان الفلاسفة كافة. لكي يتحقّق ذلك الرهان يجب على الإنسان ألا يتصرّف بناء على الثواب والعقاب كما يؤكّد كانط، فتلك أخلاق العبيد كما يوضح نيتشه، بل يجب أن يتصرّف بناء على ضميره الحرّ كما يؤكد كانط، وعلى غرائز السمو كما يوضح نيتشه. هنا يصبح كانط ونيتشه صديقين. وعلى الأرجح هنا معظم الفلاسفة أصدقاء، ذلك أنهم من وجهة نظر الحياة يؤلفون كرة ثلج تتدحرج وتكبر في مسار نحو مزيد من السموّ، تتدحرج إلى الأعلى بدل الأسفل، وذلك وفق قوانين الحياة بدل قوانين الفيزياء.

انطلاقًا من المنظور الأخلاقي فإن الإنسان غاية الغايات، طالما يوجد في أعلى هرم الغايات بلا منازع. فسواء كنا كانطيين أم نيتشويين، فإننا سنترك العصفور يأكل الدودة ونرى الأمر طبيعيًا، ونترك النمر يأكل الغزالة ونرى الأمر طبيعيًا، لكننا لن نترك السبع يأكل إنسانًا، رغم علمنا بأن اللحم البشري غذاء مناسب للسباع الجائعة.

وأما انطلاقًا من وجهة نظر وجودية، فإن الإنسان يمثل جسر عبور إلى شكل أرقى من الإنسان، ذلك ما يكشفه منحنى تطور الإنسان العاقل عبر مئات الآلاف من السنين، وهو ما يندرج أيضًا ضمن مخطط الحياة في الاستمرار والازدهار وسط كون لا يمثل بيئة آمنة للحياة.

طالما لا أحد ينكر إمكانية وجود طفرات في النمو، يبقى السؤال المبدئي أمام أخلاقيات البيولوجيا هو التالي: ما المانع أن تتم الطفرة الوراثية تحت «الإشراف الطبي»، مثلما صارت الولادة تحت الإشراف الطبي، وصار التجميل بدوره تحت الإشراف الطبي؟!

إلى وقت قريب كان الرهان أن يتواصل نمو النوع البشري عبر سلم التطور البيولوجي البطيء، والذي يمكن تسريعه نسبيًا بالرياضة والنظام الغذائي والسياسة الصحية، على أنه يبقى بطيئا بما يكفي لكي يتيح للتشريعات والقوانين والأخلاقيات والنظم السياسية والاجتماعية فرصة التكيف مع نمو النوع البشري والحضارة الإنسانية، وهذا مناسب. إلّا أن ذلك التطور البيولوجي

البطيء ليس كافيًا لتفادي خطر الانقراض الذي ضرب الحياة مرارًا، ووضعها أمام تهديدات كبيرة، ولا يزال قائمًا.

منذ مئات الآلاف من السنين لم يكن متوسط العمر المتوقّع عند الولادة يتعدّى ثلاثين عامًا، وكان معظم المواليد يموتون في المهد بسبب ضعف المناعة، وكانت الأوبئة والكوارث تحصد الملايين، وكادت مرارًا تفني الجميع، ومرّت الأرض فعلًا بعدة موجات هدّدتها بالانقراض، وأمام هذا كله لم تكن مهارات التكيف الطبيعي للجسد البشري كافية، فظهر العقل بقدراته الفائقة لأجل تعويض ذلك العوز، وبالتالي استكمال خطة الحياة في البقاء والنماء والارتقاء.

لذلك، يجب على العقل أن يبقى في خدمة الحياة، وأن يحسن الإنصات بالحس والذكاء إلى كل ما تطلبه الحياة من الكائنات الذكية، فرادى وجماعات.

الإنصات إلى الحياة وظيفة الإنسان.

قيمة الإنسان أم قيمة الحياة؟

إذا اكتشف العلماء في قادم السنوات شكلًا من الحياة أو الحضارة خارج كوكب الأرض، في مكان من هذا الكون الذي يحتوي على مليارات مليارات المجموعات الشمسية، ومليارات مليارات المجرات، فسيكون الأمر انقلابًا كوبرنيكيًّا ثانيًا أعظم شأنا وأبلغ أثرًا.

كثيرون يتوقّعون ذلك، على أساس حساب الاحتمالات

الرياضي، ووحدة قوانين الفيزياء على امتداد مليارات السنوات الضوئية، ومليارات مليارات المجرات، والمجموعات الشمسية، والكواكب التي يمكن أن تشبه الأرض بهذا القدر أو ذاك.

وكذلك باعتبار أن الذرّات الضرورية لبناء الحياة منحدرة من النجوم المتلاشية في فضاء الكون الفسيح، وبافتراض وجود شكل من طاقة الحياة الكامنة في كل مكان من الكون، وبالتالي يصبح توقّع وجود أشكال أخرى من الحياة خارج الأرض أمرًا معقولًا.

إذا صدق التوقّع، فإننا قد نواجه انقلابًا كوبرنيكيًّا ثانيًا، قد يكون أشد إثارةً وتأثيرًا من الأول.

الانقلاب الكوبرنيكي الأول أزاح الأرض عن مركز العالم بالمعنى الفيزيائي، لكن الأرض بقيت في مركز العالم بالمعنى الوجودي؛ فقد كانت ولا تزال إلى حدود الساعة، هي زاوية النظر إلى الكون، وموطن العقل والحياة الذكية.

إن اكتشاف حياة ـولو بدائيةـ خارج كوكب الأرض، سيكون مؤشّرًا قويًا على احتمال وجود حضارات متطوّرة في أماكن من الكون. بحيث يكفي أن تكون إحداها فائقة التطور حتى يقع الإنسان مباشرة تحت التهديد، وذلك بصرف النظر عن مشاعر «الغرباء». هنا لا يتعلق الأمر بمشاعر الكراهية كما قد يتبادر إلى الذهن، بل هناك معادلة من نوع آخر. فكما قال أحدهم، نحن لا نكره النمل، لكننا حين نبني طريقا سيارًا فإننا لا نكترث بمساكن النمل التي نخرّبها.

ليس ضروريًا أن نتحلى بالكراهية، يكفي أحيانًا أن نتحلّى بعدم الاكتراث.

لأجل ذلك، سبق لستيفن هوكينغ أن أطلق تحذيرًا قبل وفاته من احتمال اصطدام البشرية بحضارة أكثر تطورًا، بحيث إنها قد تعاملنا كما نعامل النمل، أو في أفضل الأحوال كما نعامل القطط والكلاب. أقصد الكلام هنا عن المجتمعات المتمدنة.

والحال إن صدمة كتلك قد تكون أشدّ عنفًا من صدمة الحداثة بالنسبة للمجتمعات المتأخرة اليوم.

إن كنا ننكر نظرية هنتينجتون حول صدام الحضارات، فذلك لإدراكنا بأن فارق التطوّر بين حضارات الأرض لا يبرر التصادم، طالما أن كل مواليد البشر متساوون في القدرات العقلية، بمعنى أن الحياة الذكية تتقاسم الذكاء الطبيعي بالتساوي. غير أن تفاوت القدرات العقلية قد يجعل التواصل صعبًا أو خطرًا.

إلى أن يثبت أن هناك أحدًا، أو لا أحد هناك سوى صمت لا نهائي يقطعه هرج سكان الأرض، يبقى الرهان على الإنسان باعتباره التعبير الأذكى والأعلى والأسمى عن إرادة الحياة، والتي تسري بنحو صامت في الكون بأسره مثلما تسري فيه قوانين الفيزياء.

لكي يستمر الإنسان في كون يمثّل في معظمه بيئة معادية للحياة، عليه الذهاب إلى أكثر من مكان من الكون، سواء أكان وحيدًا أم له جيران بعيدون.

إنها وصية ستيفن هوكينغ والتي يحاول البعض العمل من أجل

تنفيذها، بواسطة العلم، المال، والإرادة التي هي من صميم إرادة الحياة.

ذلك أن الإرادة الإنسانية مهما عظُمت، فلا يمكنها أن تنجح في إنجاز الأعمال العظيمة إلا إذا كانت تلك الأعمال تندرج ضمن إرادة الحياة، وضمن مخططاتها.

نشأة الإنسان من وجهة نظر الحياة

جاءت نشأة الإنسان في سياق تعديل الحياة لخطتها عقب تعرّضها لموجات انقراض كادت تفنيها مرارًا. فما إن أدركت الحياة بأنها في بيئة معادية، وأن استراتيجيات التكيّف لا تكفي، حتى انتقلت إلى الخطة البديلة، تعديل الوسط البيئي لكي يلائم إرادة الحياة ما أمكن. لأجل تلك المهمة وُجد الإنسان العاقل، وإن كان قد وُجد محرومًا من مقومات البقاء، بلا فرو، بلا ريش، بلا مخالب، بلا مناعة كافية، فذلك لكي يتّجه رأسًا إلى الهدف.

منذ البداية أخذ الإنسان في تعديل الوسط البيئي عبر مسار تراكمي طويل الأمد، ولعله يتجه اليوم إلى محاولات تعديل بيئة بعض الكواكب والأقمار لتصير حاضنة للحياة. حسابات الربح والخسارة هنا غير واضحة، لكن المؤكد أن الدافع الحقيقي يتجاوز الجميع: الحياة نفسها تريد أن تستمر، تنتشر، وتزدهر في كل مكان من الكون، ولأجل ذلك تثير لدى الإنسان الشغف المناسب.

صحيح أن الحياة الذكية التي اكتشفت قوانين الفيزياء صارت قادرة على تدمير كل مظاهر الحياة بنقرة زر واحدة. وحتى لا ننسى،

فطيلة سنوات الحرب الباردة كانت البشرية مرارًا قاب قوسين أو أدنى من «الزر الأحمر»، وها هي الحرب الروسية الأوكرانية، التي قسمت العالم كله، تطرح تهديد استعمال «الزر الأحمر»! ومن يدري فقد تكون حضارات على كواكب أخرى انقرضت بعد أن انقلب الذكاء على إرادة الحياة. لا ننسى أن الثاناثوس (غريزة الموت) قد هزم الأيروس (غريزة الحياة) في كثير من المواقف. كل ذلك صحيح، غير أن المعضلة لا تكمن في تطور الذكاء، بل في اختلال تطور الذكاء، بحيث تتطور الوظائف الصورية والأداتية على حساب الوظائف الحسّية والعاطفية. على أن معالجة هذا الاختلال تبقى بدورها وظيفة الذكاء. الحرص على تنمية الذكاء المتعدّد هو مهمة التربية والتعليم ومؤسسات التنشئة الاجتماعية، وفوق ذلك كله، وظيفة الذكاء الحكيم.

في أصلها ومنشأها فإن الحياة الذكية هي أداة الحياة للتحكم في الطبيعة، وتحويلها -ولو تدريجيًّا ونسبيًّا- من بيئة معادية إلى بيئة صديقة للحياة.

لأجل ذلك، لا أرى نقمة أسوأ من نقمة الخطاب الذي يعتبر الإنسان نقمة على الطبيعة. ذلك الخطاب ينسى أن الحياة على الأرض تعرّضت لموجات انقراض قبل ظهور الإنسان، وأن إحدى تلك الموجات كادت تفني كل مظاهر الحياة على الأرض، من دون احتساب موجات الفايروسات التي كادت تفني البشرية مرارًا، ولذلك، كما ذكرنا، ليس مستبعَدًا أن تكون الحياة قد انقرضت فعلًا على كواكب أخرى، حتى قبل أن تظهر الحياة الذكية.

العلم من وجهة نظر الحياة

وبما أنه طيلة آلاف السنين لم يكن متوسط عمر الإنسان عند الولادة يتعدّى ثلاثين عامًا، وكان معظم المواليد يموتون في المهد، فإن قدرة الإنسان على مضاعفة معدل عمره لا تمثل انتصارًا للعلم والعقل وحسب، بل انتصارٌ للحياة.

كما أن محاولات تطوير الأبحاث اليوم لغاية التمكّن من استنساخ حيوانات منقرضة، لن تكون بدورها مجرد انتصار للعلم والعقل، بل انتصارٌ للحياة. علمًا بأن العدد الأكبر من الحيوانات قد انقرض قبل ظهور الحياة الذكية، وحتى مع تطور العلم، والسعي لحماية الحيوانات المهدّدة بالانقراض، لا يزال هذا التهديد قائمًا.

هذا ما يتناساه المتناسون، وما أكثرهم!

تحتاج الحياة إلى الحياة الذكية، بل إلى حياة فائقة الذكاء، حتى تكسب رهان الاستمرار والانتشار والازدهار، وذلك داخل كون لا يبدو أنه صُمِّم لكي يحتضن الحياة. بل يبدو الكون كما لو أنه مصمَّم لأجل الفراغ فقط.

الأسئلة الأربعة

تسعى الكونيات اليوم إلى الإجابة عن أربعة أسئلة كبرى، تُمثل الأسئلة الأكثر أهمية بالنسبة للحياة الذكية:

السؤال الأول، ما أصل الكون؟

بمعنى، هل صدر كل شيء عن «لا شيء»، أم إن الأشياء كلّها

صادرة عن شيء لا يشبه أي شيء!؟ هل علّة الكون كامنة في ذاته أم في أكوان أخرى قد تكون سابقة أو موازية؟ هل هناك لحظة صفر للكون أم إن كل اللحظات لها ما قبلها بلا بداية؟

السؤال الثاني، ما طبيعة الكون؟

بمعنى، هل الكون ممتد وبالتالي لا متناه، أم إنه مقعَّر وبالتالي محدود؟ هل يتألف من جزء واحدٍ لا يتجزّأ أم إن كل أجزائه تتجزأ إلى ما لا نهاية؟ هل يتمدّد الكون بالفعل أم إن بنية الزمان والمكان هي التي تتمدّد؟ هل هناك كون واحد أم أكوان متعدّدة، قد تكون موازية أو متتالية؟

السؤال الثالث، ما مصير الكون؟

بمعنى، هل سيصير الكون مجرّد طاقة تتلاشى في الفراغ بفعل تسارع التمدّد؛ أم سيعود إلى التباطؤ بفعل الجاذبية الكونية قبل أن يعاود الانكماش؛ أم إنه سيستقرّ على حال من التوازن بين قوى الجاذبية وقوى الطاقة السوداء؛ أم إن هناك مصائر أخرى خارج كل الحسابات الحالية، وقد تكون خارج كل التوقّعات؟

السؤال الرابع، هل لنا جيران في الكون؟

بمعنى، هل هناك أشكال من الحياة، وبالتالي هل هناك أشكال من الحياة الذكية على كواكب بعض المجموعات الشمسية أو المجرّات الأخرى، أم إننا وحيدون في وسط غبار الكون؟

الأسئلة الثلاثة الأولى هي أسئلة البدايات الأولى للعقل البشري، أسئلة الفلاسفة الطبيعيين الأوائل، والفلاسفة الذرّيين،

والفلاسفة اللاهوتيين، لكنها أيضًا أسئلة الفيزياء الراهنة عقب انحسار الأجوبة اللاهوتية التقليدية.

السؤال الرابع سؤال حديث العهد، لا يتعدّى عمره قرنًا ونصف القرن، لكنه لم يطرح بالجدية المطلوبة إلّا في الآونة الأخيرة، حين رأى الإنسان أن الكون يشمل مليارات المجرات، ومليارات المليارات من المجموعات الشمسية، وأن هذا كله يخضع لقوانين الفيزياء نفسها، وأن قوانين الحياة جزء من قوانين الفيزياء.

أيًا كانت نتائج الأسئلة الثلاثة الأولى، فإن نتيجة السؤال الرابع ستكون الأكثر تأثيرًا على الفلسفة المعاصرة، بل إن أول مجال سيتأثر بالإجابة هو الفلسفة بالذات، وهذا رغم أن الجميع يتكلّم في الموضوع إلا الفلاسفة، أو ليس بعد! فهو سؤال لا بدّ للفلسفة أن تنخرط في البحث فيه وفتح إمكانات جديدة للعقل، وللتفكّر.

وجود أشكال أخرى من الحياة، ولا سيما الحياة الذكية، من شأنه أن يقلب كل مفاهيم الفلسفة حول الإنسان، العقل، الوعي، الحضارة، الطبيعة، التاريخ، الثقافة، إلخ. على أن مجرد وجود أشكال دنيا من الحياة سيمثّل دليلًا إضافيًا على أن الحياة ثمرة إرادة الحياة الكامنة في كل الأشياء، وأنها لذلك ليست مجرد ضربة حظ خارقة في سديم الأبدية العمياء، وأنها مفتوحة على إمكانات قد تختلف عن كل أشكال الحياة على الأرض، وقد تتجاوز الإنسان، وذلك كله سيكون دليلًا إضافيًا على أن قوانين الحياة هي جزء من قوانين الفيزياء التي تسري على الكون بأسره، ومؤشرٌ على فرضية طاقة الحياة الكونية.

في انتظار أن ندرك وجود جيران لنا، أو نقتنع بأننا وحيدون في هذا الكون الصامت، تبقى مهمتنا هي نشر الحياة على أوسع نطاق في هذا الكون الواسع والفسيح، إنها المهمة التي تمليها قوة الحياة!

لأجل ذلك يجب استلهام التحذير الشهير الذي سبق أن أطلقه ستيفن هوكينغ، وترجمه إيلون ماسك إلى مشروع فضائي ضخم يتغيًّا المساهمة في انتقال الإنسان من حضارة أرضية إلى حضارة متعدّدة الكواكب، حيث لن تنجو البشرية من خطر الانقراض إلّا إذا أنشأت مستوطنات خارج الأرض، تتوزّع على نقاط متفرّقة من الكون.

وكما سبق القول، يجب على البشرية ألا تضع بيض مصيرها كله في سلة واحدة.

ذلك ما يمليه الذكاء الحكيم.

ذلك ما يمليه العيش الحكيم.

وذلك ما تمليه الحياة.

هل من أحد هناك؟

يقوم بعض علماء الفلك أحيانًا بإطلاق إشارات إلى الفضاء الخارجي أملًا بأن تأتي الاستجابة يومًا من حضارة قد تكون نشأت بعيدًا عن الأرض. كان ستيفن هوكينغ نفسه مهتمًا بالموضوع، وقد أشرف قبل وفاته على مشروع يهدف إلى رصد إشارات كائنات أو حضارات خارج الأرض. هذا ومن بين أهداف التلسكوب الأكبر

اليوم في العالم، «جيمس ويب تلسكوب»، التأكد من وجود جيران لنا في هذا الكون الفسيح!

قد يستغرق البحث عقودًا طويلة، وربما قرونًا، وأيا تكن النتائج التي قد لا تكون وشيكة وقد لا تكون مؤكّدة، من المؤكد أن العقيدة التي تربط الحياة بالأرض قد انهارت، وتبلورت فرضيات بديلة ضمن ما بات يُعرف بالبيولوجيا الفلكية Astrobiology، والتي تؤطّر محاولات رصد أشكال من الحياة أو آثار حياة منقرضة على بعض الكواكب، وكذلك إمكانية انتقال الحياة الأرضية إلى بعضها الآخر، وأساس ذلك كلّه ما ذكرنا من أن قوانين الحياة جزء من قوانين الفيزياء التي تسري على الكون بأسره.

وحدة قوانين الكون معناها أن كل ما يحدث في نقطة يمكن أن يحدث في نقاط أخرى ولو باختلاف المظاهر والظواهر، طالما الكون نفسه، والذرّات نفسها، وقوانين الكتلة والجاذبية نفسها، فضلًا عن وجود مليارات المجموعات الشمسية، ومليارات الكواكب، والتي قد تتشابه، وقد يشبه أحدها، أو ربما بعضها، الأرض بهذا القدر أو ذاك. وسيحتاج حساب الاحتمالات إلى استعمال الأعداد الفلكية. وأيضًا، بمراعاة عمر الكون، فإن احتمال وجود أشكال من الحياة، أو الحياة الذكية، في أكثر من نقطة من الكون، لا يمثل أي خرق لقوانين الطبيعة، بل المعجزة الخارقة هي أن تنفرد الأرض بالحياة.

أن يكون لنا جيران على درجة معينة من التطوّر، في هذا الكون الفسيح، فهذا احتمال راجح بالحساب الرياضي، وبفعل طاقة

الحياة الكونية، وإن كان من شأن ذلك أن يمثّل ضمانة لقدرة الحياة على النشوء والتطوّر في أكثر من نقطة من الكون، فقد لا يمنحنا أي ضمانة لمستقبل الإنسان ومكانته في الكون، لا سيما في حال وجود حضارات أكثر تطورًا.

هذا الاحتمال الأخير تستبعده «مفارقة فيرمي» الشهيرة، ومفادها ما يلي: لو كانت هناك حضارات خارج الأرض لكان بعضها أكثر تطورًا بما يكفي لامتلاك وسائل الوصول إلينا. وطالما أن لا أحد زارنا فمعناه أنها غير موجودة.

لعلها حجّة معقولة لكنها ليست وحدها التي يمكن أن يتقبّلها العقل.

وحتى لو أقنعتنا «مفارقة فيرمي» باستبعاد وجود حضارة أكثر تطورًا، غير أنها لا تنفي وجود أشكال من الحياة أقل تطورًا، أو أقل ذكاء من حضارة الإنسان، وبحيث تكون الزيارة مهمتنا نحن. والحال أن هذا ما يرجّحه حساب الاحتمالات.

أن تختصّ الأرض لوحدها بالحياة وسط كون تحكمه قوانين موحّدة ويضم مليارات المجموعات الشمسية، فستكون الحياة بهذا النحو معجزة أرضية يصعب تبريرها، لكن أن تختص الأرض بالحياة الذكية، أو الأكثر ذكاء، فهذا الأمر مبرَّر طالما في كل الأحوال هناك نقطة محددة يجب أن تكون هي الأكثر تطورًا، وقد نكون نحن بالذات. لم لا!؟

لذلك قد لا نكون وحيدين في الكون، على أننا قد نكون الوحيدين الذين يهتمّون بالسؤال الأكثر إثارة على وجه الإطلاق:

هل نحن وحيدون أم لنا جيران في هذا الكون؟

قد تتواجد الحياة في أكثر من نقطة من الكون، وهذا احتمال أول ترجحه الحسابات. وقد تكون حكرًا على نقطة واحدة هي الأرض، وهذا احتمال ثان لا ترجحه الحسابات. لكنْ، هناك احتمال ثالث، حيث الحياة على الأرض هي النقطة الأكثر تطوّرًا، والأكثر ذكاء، فيكون غزو الكون بالتالي هو الأمل الذي تعلّقه الحياة على الإنسان، لكي تنمو وتزدهر في كل أبعاد الكون، وإلى أقصى حدود الممكن.

الحياة نعبُرها أم تعبُرنا؟

يؤكد شوبنهاور أن الحياة موجودة لكي نعبُرها، مثل جسر معلّق بين فناءين مطلقين. فيكون السؤال الحقيقي هو كيف نعبُر الحياة، بدل كيف نعيش الحياة؟ هنا يبدو شوبنهاور كما لو يُذكّرنا بمعطى بديهي، الحياة مجرّد عبور من فناء ما قبل الولادة إلى فناء ما بعد الوفاة. غير أن تعبيرًا كهذا قد يصبّ مباشرة في مصلحة العدمية، حيث يبدو العبور من لا شيء إلى لا شيء، بدون أي معنى. وهو المآل الذي يمكن تفاديه بإجراء تعديل لا يقوِّض تصوّر شوبنهاور بالضرورة.

التعبير الأدقّ أن نقول، الحياة لا نعبُرها لكنها تعبُرنا. فالإنسان لا يعبُر الحياة بل الحياة هي التي تعبُر الإنسان. الإنسان هو الجسر إذًا، هو ذلك الحبل المنصوب فوق الهاوية، وفق تعبير صاغه نيتشه على لسان زرادشت، لكن إلى أين؟ ربما إلى ما بعد الإنسان على

المدى الطويل، أو تحسين النسل على المدى المتوسط، أو حياة أفضل على المدى القصير، أو مزيد من النمو رويدًا رويدًا، وفي كل الأحوال ليست الحياة ممرًّا أو معبرًا، بل طاقة كونية كامنة في كل الأشياء، تمتلك إرادتها التي تعلو على كل الإرادات، لكن تجلّياتها تختلف من شيء لآخر، من نوع لآخر، ومن شخص لآخر.

الذات جسرًا

كل واحد منا يمثّل بأسلوبه الخاصّ، جسرًا لعبور الحياة، فإما أن يساعدها لأجل عبور جيّد فتجازيه بالفرح، الطمأنينة، والحياة الطيبة، أو أنه سيعيق نموها فتعاقبه بالتعاسة، التوتر، ومعيشة في ضنَك.

كيف يستطيع المرء أن يجعل العبور جيّدًا؟

لا يتطلّب العبور أيّ حظّ أو حظوة كما يظنّ الفاشلون في الحياة، ولا يوجد نموذج قابل للتعميم، بل يكفي العيش بأقصى درجات المرونة والتركيز، وذلك بمعزل عن الأوهام التي تدمّر القدرة على الحياة، يكفي ذلك، أو يكفي شيء من ذلك، حتى يدرك المرء ما الذي عليه أن يفعله لتكون حياته عبورًا جيّدًا للحياة؟

عليه أن يحفظ صحته الجسدية والعقلية، وله أن يجتهد في ذلك.

ثم ماذا؟

عليه أن ينشر المشاعر الإيجابية من حوله، أينما حلّ وارتحل، وله أن يجتهد في ذلك.

ثم ماذا؟

عليه أن يمنح لأبنائه وآبائه وأصدقائه شجاعة العيش في كل الظروف، وله أن يجتهد في ذلك.

ثم ماذا؟

عليه أن يدرك القيمة العالية لأن يكون حرًا، فلا يكون تابعًا ولا يرضى حياة العبيد طمعًا بأي مكسب، وفي قلب هذه الحريّة كقيمة رفيعة تكمن المسؤولية، وله ان يجتهد في ذلك.

ثم ماذا؟

عليه أن يصغي إلى إيقاع الحياة برهافة حسّ وتركيز ذهني كبير، وله أن يجتهد في ذلك.

ثم ماذا؟

عليه أن يعيش، وله أن يجتهد في ذلك.

القوانين الثلاثة

هناك في مجمل القول ثلاثة أنواع من القوانين في هذا الكون الذي نعيش فيه، ولقد آن أوان توضيحها لأجل تقريب مقاربتنا للسؤال: لماذا نعيش؟

أوّلًا، قوانين الفيزياء. وهي، كما نكرّر، القوانين التي تسري على الكون بأسره، وعلى جميع الأجسام غير الحيّة، من المجرّات والكواكب والنجوم في العوالم اللامتناهية في الكبر، إلى الجزيئات والذرّات والجُسَيْمات في العوالم اللامتناهية في الصغر، بل تسري حتى على الفراغ الذي يغطّي معظم مساحة

الكون. في هذه القوانين تخضع الحركة للقوى الفيزيائية الأساسية: قوى الجاذبية في مستوى العوالم اللامتناهية في الكبر؛ وكل من القوى الكهرومغناطيسية، القوى النووية الشديدة، والقوى النووية الضعيفة، في مستوى العوالم اللامتناهية في الصغر.

قوانين الفيزياء هي المجال الذي تدرسه علوم الفيزياء بكل فروعها.

ثانيًا، قوانين الحياة. وهي القوانين التي تسري على كل الكائنات الحيّة من النباتات البدائية إلى الحيوانات العليا. في هذه القوانين تخضع الحركة لقوى النمو، التكاثر، التوالد، فضلًا عن مختلف الدوافع الغريزية التي تحرّك الحيوانات العليا، بما فيها الإنسان، غير أن غاية الغرائز في النهاية أن يتواصل النمو بلا حدود.

قوانين الحياة هي المجال الذي تدرسه علوم الحياة بكل فروعها.

ثالثا، قوانين الحياة الذكية. وهي القوانين التي وضعها الإنسان لنفسه بنفسه لكي يؤطّر حركته طالما امتلك هامشًا من حرية الحركة، وذلك من الدساتير إلى قواعد المرور، ومن النظريّات العلمية، وقواعد اللغة، إلى مختلف التقاليد والأعراف. إنها قوانين الوعي، التي وضعها الإنسان العاقل بوعي وإرادة وتفاهم لكي يضبط نفسه بنفسه، وذلك بعد أن صار بوسعه أن يتملّص من حتمية الدوافع الغريزية بهذا القدر أو ذاك.

قوانين الحياة الذكية هي المجال الذي تدرسه العلوم الإنسانية بكل فروعها.

تلك القدرة على التملّص الغريزي لدى الإنسان، حين تتّسم بالحكمة والذكاء، فقد تجعل الإنسان في نهاية الأمر قادرًا على أن يحكم الطبيعة ويحكم نفسه.

لأجل ذلك يحتاج إلى الاستنارة بالذكاء الحكيم.

ما الذكاء الحكيم؟

الذكاء الحكيم هو فعالية العقل النقدي حين يراعي معايير الحياة وإرادة الحياة، فيستشعر كل ما تريده الحياة في كل مرحلة من مراحل التطور. إذا كانت الحياة تبدو كأنها بلا معنى فلأن كل المعاني الممكنة للأشياء كلّها لا يمكن تحديدها من خارج معايير الحياة، وإرادة الحياة.

الحياة هي التي تحدّد معاني الأشياء، ولذلك لا شيء في المقابل يحدّد معناها.

المعادلة واضحة.

على المنوال نفسه يتوجّب على العقل النقدي أن يحتكم إلى معايير الحياة طوال الوقت، وذلك حتى لا يتحوّل النقد إلى مجرّد ضرب عشوائي في الفراغ، أو لعب صوَري بالعبارات، أو قصف مجاني إلى الخلف.

كذلك هو حال الكثيرين في كثير من الحالات.

الفصل الخامس

روحانية الكون والحياة

أومن بأن الحياة تعاقب وتجازي، بل، على غالب الظن، وحدها الحياة تفعل ذلك، وهي في حسابها تمهل ولا تهمل.

أومن بهذا النوع من الجزاء الحيوي إيمانًا قائمًا على تجربة الحياة نفسها. وبالتالي ستكون البراهين من داخل الحياة لا من خارجها. قبل ذلك لا بأس أن أنوِّه لأصدقائي المؤمنين الصادقين بأن الخطاب القرآني يوافق على ذلك الرأي إلى حد ما أو إلى حدٍّ بعيدٍ، وبوسعي أن أسرد لهم إحدى الآيات على سبيل المثال، ﴿مَنْ عَمِلَ صالحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل : 97]. الآية صريحة فصيحة كما يبدو للحس السليم. ومع أن كثيرين من المفسّرين عبثوا بالمعنى فجعلوا الحياة الطيبة تعني الجنة، والعمل الصالح يعني العبادات. إلّا أن الحس السليم لا يجفل أمام وضوح المعنى.

قناعتي سأقولها بغير قليل من اليقين:

الحياة تعاقب وتجازي، وهذه بعض أدلّتي بالتّالي، أستلهمها من تأمّلاتي في الحياة وحياة الآخرين، وأبسُط خلاصاتها للعبرة ولمن يعتبر:

أعرف أشخاصًا تخلّوا عن حبيباتهم غباءً، فعاقبتهم الحياة بحنين يوخز القلب في كتمان إلى آخر العمر. والحنين المكتوم جحيم أعظم.

أعرف أشخاصًا تخلوا عن أبنائهم صغارًا أو رضّعًا وظل الأسى يقض مضاجعهم مثل أشباح ليالي الشتاء، يحاولون أن يستروا أساهم عن سواهم. والأسى المستور وجع أكبر.

أعرف، بل كلنا نعرف، أشخاصًا عاقبتهم الحياة لأنهم خرقوا قواعد التغذية الصحية، فرّطوا في الواجبات الرياضية، لم يُروِّضوا أدمغتهم بالقراءة والتأمّل والتفكير الإيجابي، لم يستعملوا عقولهم في شؤونهم، لم يتحكّموا في انفعالاتهم كما ينبغي، فكان شقاء أرواحهم باديًا على وجوههم لا ينفع معه المكابرة ولا الإنكار، ذلك أنهم يتحرّجون أن يكون الله يعاقبهم على الملأ، فترتدّ عليهم أعمالهم وأفكارهم التي كانوا ينشرون.

هذه الأدلّة كثيرة، وخاصة حين يقع الظلم أو الإهمال أو التجنّي...

وهذه الآلام من باب جزاء الحياة في الحياة.

يجب أن نثق في الحياة، وأن نثق في الحلول التي تقترحها علينا الحياة من باب الرحمة، والتي قد تكون قريبة منا لكننا لا نراها في غمرة التكبّر أو الخوف أو الغضب...

حتى حين لا نعرف كيف نفعل أي شيء فإن الحياة نفسها تقوم بالواجب، وعلى أفضل وجه ممكن. لكن العبرة هنا أن نعرف كيف لا نفعل؟ فعدم الفعل قد يحتاج بدوره إلى مشاعر وقدرات خاصة، مثل الفعل. أحيانًا لا تطلب منا الحياة سوى الصمت، لكن العبرة أن نعرف كيف نصمت، وأن نمتلك شجاعة الصمت، طالما دأبنا في حياتنا اليومية على الضجيج إلى حد الإدمان.

معظم جروح ووعكات الجسد يعالجها الجسد بنفسه، يكفي لأجل ذلك أن نتعامل معه بمحبة وتركيز، يكفي أن نساعده بإعمال الصمت البليغ، بحيث ينال الجسد السلام الذي يطلبه قبل أن يتصرّف من تلقاء نفسه، ومن خلاله فإن الحياة هي التي تتصرّف.

إن الذي يجعل الجسد يداوي جروحه بنفسه هو طاقة الحياة، لا شيء آخر غير طاقة الحياة.

صحيح أن القواعد الصحيّة للسلوك الغذائي والحركي والرياضي والانفعالي لا تمنع الأمراض والوعكات، لكنها تجعل الجسد جاهزًا لمساعدة الحياة في خطة الإشفاء. الحياة نفسها تنجز المطلوب من دون أن تحتاج أحدًا، ومن دون تبجّح كذلك. وأما حين تكون المساعدة الطبية ضرورية فإنها ستكون ناجحة بقدر ما تحترم خطة الحياة وتساعدها بالتالي. لذلك ليس مصادفة أن نستعمل عبارة «المساعدة الطبية». وإننا ليتوجب علينا أن نعني بهذا القول ما نقوله.

كثير من الاضطرابات السلوكية للأطفال تعالجها الحياة حين نتركها تتكفل بالأمر من تلقاء نفسها، ونمنحها الثقة في كل ما ستفعله، ولا يكون التدخّل الطبّي عند الضرورة إلا من باب مساعدة خطّة الحياة.

تجازينا الحياة بالفرح والشفاء، تعاقبنا بالمرض والشقاء، وقد تمنح لغير المحظوظين منا وسائل للتعويض عن خساراتهم، وأما حين تتركنا لمخالب الموت في النهاية فليس لأنها خذلتنا، بل لأنها استنفدت لأجلنا كل إمكاناتها، وسواء كنا قد ساعدناها كما

ينبغي، أم لم نساعدها بما ينبغي، فعلينا أن نودّعها بشكران، ذلك أنها لم تتخلَ عنا بسهولة.

لا أحد تتخلّى عنه الحياة بسهولة.

حتى الظبي الصغير الذي تحاصره السباع، لا تسلمه الحياة من دون مقاومة.

يقاوم حتى النفس الأخير.

ومن خلاله تقاوم الحياة.

وحتى السباع نفسها فإنها تلتهمه لأجل الحياة.

رعاية الأحاسيس

«في الكون لا توجد إلّا الذرّات والفراغ»، هكذا قال ديمقريطس قبل خمسة وعشرين قرنًا. إنها حقيقة علمية لا تزال صامدة إلى اليوم:

بخصوص الذرّة، إذا استحضرنا أنها تحيل في الدلالة اليونانية إلى جُسيم أو جُزيءٍ افتراضيٍّ يمثّل اللبنة الأولى في بناء الأشياء كلّها، من الفَراشات إلى الكواكب، نكون أمام حدس استشرافي مُبكر.

وبخصوص الفراغ، إذا استحضرنا أن الفيزياء المعاصرة اكتشفت أن معظم الكون فراغ، ومعظم الذرة فراغ، نكون أمام حدس استشرافي مبكر.

كيف أمكن للجسيمات أن تؤلّف كل هذه الأشياء الساحرة من حولنا؟

مع ديمقريطس نفسه اكتملت الإجابة المبدئية، «تحدث الأشياء

من خلال الصدفة والضرورة». الصدفة والضرورة تعملان جنبًا إلى جنب. مثلًا، الجسيمات ذات الشحنة الموجبة والجسيمات ذات الشحنة السالبة تتجاذبان، تلك هي الضرورة، لكن أن يتشكّل من ذلك القانون عدد من الذرّات فهذا يحتاج إلى قدر لا متناهٍ من المصادفات طالما كل شيء يسبح في الفراغ. تمامًا مثلما يتجاذب الذكور والإناث، لكن ليس كل انجذاب ينتج لقاء، وليس كل لقاء ينتج حبًّا، وليس كل حب ينتج زواجًا، وليس كل زواج ينتج أسرة مستقرّة. إن ما يحدث في تشكّل «الذرّة المستقرّة» يحدث أيضًا في تشكّل «الأسرة المستقرّة».

بالنظر إلى حجم المجرّات، والعناقيد المجَرّية، والمسافات بينها، وكل ذلك يُحسب بمليارات السنوات الضوئية، فإن لمناطق الفراغ الكوني قوة دفع، ولمناطق الامتلاء الكوني قوة جذب، وهذا بدوره قانون من قوانين الضرورة، لكن تشكّل المجرّات تساهم فيه المصادفات أيضًا، وعلى هذا المنوال تتشكّل المجتمعات البشرية انطلاقًا من القانون نفسه: مناطق الفراغ والخلاء تدفع، ومناطق الكثافة العالية تجذب، غير أن للمصادفات دورًا في التفاصيل.

كان ديمقريطس يرى أن كل ما ليس ذرّات وليس فراغًا، مجرد آراء في الذهن. وكان موصوفًا بالفيلسوف الضاحك لميله إلى البهجة! يقال إن له كتابًا مفقودًا بعنوان «الابتهاج»، وفعلًا فقد كان ميّالا إلى الفرح مثل الأطفال، بمعنى مثل الفلاسفة الحقيقيين، فالفرح ليس مجرد رأي، بل قوّة مادّية، مثل الذرّات والفراغ.

الفرح يحرّك النمو وفي الوقت نفسه ينجم عنه.

الفرح طاقة الحياة، والحياة قوة الفرح.

بين نبتة ترعاها وأنت مبتهج، وأخرى ترعاها وأنت مكتئب، ستنمو الأولى بنحو أفضل. إن ما يجعل كلبك يحزن لحزنك فيؤثر ذلك سلبًا على نموه، ويفرح لفرحك فيؤثر ذلك إيجابًا على نموه، هو طاقة الحياة نفسها التي تمتلك حساسية مرهفة نحو المشاعر، على أنها كامنة في الأشياء كلّها.

قد أقف هنا، غير أنيْ سأضيف في عجالة توضيحًا غير ضروري:

كل ما يحيط بالناس قد يتفاعل مع المشاعر الإنسانية للناس، وذلك عبر الحواس، والرئتين، والحركة، والتركيز الذهني، بما في ذلك جدران البيت العائلي كما أفترض بالحدس والخبرة. إن كان هذا الحدس مستغربًا فلا ننسى أن علماء الكوانتوم أنفسهم قد لاحظوا كيف يتأثّر سلوك الجسيمات الفيزيائية بحضور الشخص المراقب!؟ ما يدفع بعضهم إلى افتراض وجود درجة من «الحساسية» الكامنة في «جوهر» الأشياء، الجسيمات!

هذا ليس مستغربًا في عالم الذرّات، وقد لا يكون مستبعدًا في عالم الأجسام.

لذلك، وددت لو أستطيع أن أقول:

في الكون لا توجد إلا الذرات والفراغ والأحاسيس.

رعاية الأحاسيس وظيفة الإنسان.

لماذا لا شيء هناك؟

أواخر القرن السابع عشر طرح لايبنتز السؤال الميتافزيقي الأكثر

شهرة: «لماذا هناك أشياء بدل لا شيء»، علمًا -كما يوضح- أن «لا شيء» هو أبسط الأشياء على الإطلاق، فلا يوجد ما هو أبسط من لا شيء!؟ المفاجأة التي لم يتوقّعها لايبنتز، أن الـ«لاشيء» بالمعنى الفزيائي ليس شيئًا بسيطًا، ولا هو بأبسط الأشياء، بل هو معقد ويغلي بطاقة شبحية هائلة، بوسعها أن تبرر أن كل شيء قد ينحدر من لا شيء، بحيث يكون السؤال الأكثر حيرة هو الذي يُطرح إزاء الفراغ الذي يحتل معظم مساحة الكون، بدل الأشياء التي لا تملأ سوى مساحة ضئيلة من الكون: لماذا هناك الفراغ!؟ لماذا هناك اللاشيء؟! لماذا لا شيء هناك؟!

كان لايبنتز يرى أن العالم قبل أن يوجد بالفعل كان موجودًا بالإمكان، كان يمثّل إمكانية ضمن عوالم ممكنة لا متناهية، ومن خصائص الإمكان أن يكون كامنًا كتصور ذهني، لذلك يحتاج إلى عقل لن يكون في حالة الكون سوى العقل الإلهي. هذا هو دليل لايبنتز على وجود الله.

غير أن «الوجود بالإمكان» في ميكانيكا الكوانتوم مع أنه افتراضي إلا أنه ليس مجرّد تصوّر ذهني، بل «أشباح أشياء» كامنة في الفراغ وتعوزها الطاقة الكافية لكي تتشيّأ وتصير أشياء. يشبه الأمر إحدى أشهر فرضيات أرسطو، حيث تمثّل طاقة الفراغ هنا نوعًا من الوجود بالإمكان، مقابل طاقة الأشياء التي هي الوجود بالفعل.

الفراغ طاقة غامضة لكنها في المستوى الفلكي جبارة بما يكفي لكي تدفع المجَرّات، ولكي تبتلع الكون بأكمله وفق بعض السيناريوات المفترضة. بهذا النحو قد يكتسي الفراغ أهم

خصائص الألوهية: الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، فضلًا عن أنه لا مرئي كذلك!

يَفترض كثيرون من الفيزيائيين اليوم أن يكون الكون قد نشأ من طاقة الفراغ قبل الانفجار العظيم، وأن يعود إلى الفراغ بعد نفاد طاقته، أو بعد تلاشيه. تلك حكاية البداية والنهاية بكل عناصر التشويق التي صنعتها الجُسَيمات، الجُزَيئات، الخلايا، والخلايا العصبية. لكن ماذا بعد؟!

هل هناك سرٌّ ما خلف الستار؟!

أيًّا يكن، لو تأكد أن الكون خرج من الفراغ، فإن قوانين الفيزياء لا تبرّر أن يحدث شيء ما مرّة واحدة، حتى ولو كان بحجم الكون.

قد تكون أكوان سابقة أو لاحقة في الزمان، أو موازية في المكان، تخرج من الفراغ الكوني مرات ومرات، لتؤلّف بدورها ملاحم أخرى في الحياة، وقوانين الحياة، على منوال فرضية «العود الأبدي»، أو ما شابهها!

ربما في إحدى المرات تنتصر إرادة الحياة، والحياة الذكية، على الفناء الفيزيائي. من يدري؟!

وقد تكون هذه المرّة بالذات، من يدري؟!

أو لعلي أحلم، ربما!

غير أن الأحلام حقائق لا تنتظر سوى من يحسن تأويلها.

شبح الجسد

بفضل فيزياء الجُسَيمات اكتشفنا حقيقتين مذهلتين حول أجسادنا:

أوّلا، المكوّن الأساسي لأجسادنا ليس الماء، ليس الأوكسجين، ليس الكربون، ليس الهيدروجين، بل المكوّن الأساسي لأجسادنا هو لا شيء، أقصد الفراغ. نسبة الفراغ في الجسم تمثل أكثر من 99,99٪. هذا مذهل إلى درجة أن التعريف الأدق للجسد أن نقول: الجسد فراغ تسبح فيه بعض الجُسَيمات، ويمشي مثل الشبح، غير أنه لا يستطيع أن يخترق الستائر!

هذا بدوره مذهل.

الحقيقة أن الأشياء جميعها عبارة عن فراغات وثقوب، حتى النقود التي توضع في الجيوب، فهي عامرة بالثقوب. أقصد، النقود وليس الجيوب فقط!

لعل إحساس الجسد بذلك الفراغ الذي يسكنه هو ما يبعث في الإنسان الخوف من الفراغ، كل أنواع الفراغ، سواء أكان فراغًا في المكان أم الزمان.

لا تخيفنا إلا أشباحنا، أو بالأحرى نحن الأشباح التي تخيفنا.

ثانيًا، تتشكّل أجسادنا من ذرات هي رماد نجوم انفجرت قبل مليارات السنين. ما يعني أننا هبطنا فعلًا من السماء كما تزعم الأساطير والديانات والملاحم الشعرية القديمة. لا ننسى أن الأساطير والأديان تحمل حقائق مشفَّرة، مثل الأحلام.

ربّما ذلك الأصل السماوي هو ما يفسّر اتجاه الخبرات الدينية القديمة إلى السماء كنوع من الحنين اللّاواعي إلى المنشأ: عبادة الكواكب، عبادة النجوم، عبادة آلهة السماء، طقوس التنجيم، قراءة الأبراج، إلخ؛ وقد يفسّر برامج غزو الفضاء اليوم، ومشاريع

إنشاء مستوطنات على كواكب أخرى؛ وقد يفسّر شغف الجمهور بوصف بعض الأشخاص المرموقين بالنجوم؛ وقد يفسّر عبارات من قبيل «سطع نجمه»، «أفل نجمه»؛ وقد يفسّر قدرة الإنسان على الحلم!

لا ننسى كذلك أن للحلم نفسه ذاكرة قد تمتد لآلاف السنين، وذلك باستحضار الذاكرة الوراثية للإنسان، وربما أكثر من ذلك بكثير إذا افترضنا وجود نوع من الذاكرة الكمومية للكون. وهذا ليس محالا.

العالم أرقام وأنغام

قال الفيثاغوريون قديمًا: «العالم أعداد وأنغام»، ثم وافقهم إخوان الصفا. على أنّ الأمر هو كذلك بالتمام.

بصدد الأعداد، تخبرنا الفيزياء المعاصرة بأن الفرق بين الذرّات التي تؤلّف مختلف الأشياء هو فرق عددي، وهذا ما يسمّى بالعدد الذري، أي عدد البروتونات والإلكترونات داخل الذرات. فالعدد الذري للهيدروجين هو 1، والعدد الذري للأوكسجين هو 8، ثم إن 2 ذرات هيدروجين زائد 1 ذرة أوكسجين تساوي 1 جزيئة ماء، وهكذا دواليك. لذلك يمثل الاختلاف العددي جوهر الأشياء كلّها. فماذا عن الأنغام، لكي تكتمل «الرؤيا» الفيثاغورية؟

هناك فرضية تسمى نظرية الأوتار، ترى أن الجُسَيمات الأولية التي تؤلّف الذرّات، من قبيل الكواركات والإلكترونات، تتألّف بدورها من مكونات أولية افتراضية وغير مادّية تسمى الأوتار،

وبحيث تمثّل الجُسَيمات أثرًا بصريًّا لنغمات الأوتار أثناء اهتزازها. وباختلاف النغمات تختلف الجُسَيمات. فيكون الجوهر النغَمي سابقًا على الجوهر العددي. حيث الجوهر العددي يصنع الذرات التي تؤلّف الأشياء، والجوهر النغَمي يصنع الجسيمات التي تؤلف الذرات.

ربما الإحساس بأنّ جوهر العالم أعداد هو ما يفسّر سحر الأرقام وطقوس الإعجاز العددي في كثير من التقاليد الدينية القديمة والحديثة!

ربما الإحساس بأن جوهر العالم أنغام هو ما يفسر الاستعانة بالموسيقى والألحان في أداء الشعائر والعبادات داخل كثير من التقاليد الدينية القديمة والجديدة!

هنا تكمن روحانية الأنغام والأعداد، كما يبدو.

بل هنا تكمن روحانية الكون والحياة الكونية، كما يمكننا أن نفترض بأقل ما يمكن من المجازفة.

العالم كما نراه

واقع فيزياء الجُسَيمات مليء بعبارات تشبه حكاية «أليس في بلاد العجائب»، من قبيل أن الشيء نفسه قد يتواجد خلال الوقت نفسه في موقعين مختلفَيْن أو أكثر، وأن الشيء نفسه قد يتحرّك خلال الوقت نفسه بسرعتين مختلفتين أو أكثر، وأن الشيء واللاشيء شيء واحد، وأن بعض الأشياء قد تنبع من الفراغ فجأة وتعود إليه، وأن بعض الأشياء تتأثر بمراقبتنا لها، وهو ما لم

يستوعبه حتى عقل من حجم عقل آينشتاين، فكان يفترض وجود خطأ في ميكانيكا الكوانتوم.

تلك العبارات تبدو صادمة للحسِّ السليم، وقد يبدو من السهل الاعتراض عليها بنموذج «قطة شرودنجر» الشهيرة، القطة ميتة وحية في الآن نفسه! لكن اعتراضًا كهذا يبقى غير مقنع، طالما عالم الأجسام ليس هو عالم الجُسَيمات. كما أن فيزياء الجُسَيمات لا تقدّم الواقع في ذاته كما أوضح نيلز بور، بل تقدّم إدراكنا للواقع.

لذلك فإن عبارات من قبيل أن شيئًا قد يتواجد في أكثر من مكان، أو يتولّد من الفراغ، لا تخبرنا عن الواقع في ذاته بقدر ما تخبرنا عن الواقع كما ندركه بحواسنا، عقولنا، لغتنا، مفاهيمنا، رياضياتنا، ولا وعينا أيضًا، علمًا بأن آليات الإدراك هذه كلها قد تشكّلت في إطار العلاقة مع الأجسام «الكبيرة».

غير أن توضيح نيلز بور قد لا يقتصر على فيزياء الجُسَيمات بل قد يشمل أحيانًا فيزياء الأجسام الكبيرة. مثلًا، إن عبارة من قبيل: «هناك كثير من النجوم في السماء»، لا تخبرنا عن الواقع في ذاته طالما النجوم التي نراها ربما اختفت منذ زمن طويل، لكن العبارة إياها تخبرنا فقط عن الواقع كما نراه انطلاقًا من نقطة معينة في الزمان والمكان، فضلًا عن طبيعة الحواس، وسائر المعطيات الثقافية في بعض الأحيان.

الألوان أيضًا لا تخبرنا عن الواقع في ذاته بقدر ما تخبرنا عن إدراك العين البشرية لموجات الضوء، وكذلك موجات الصوت بالنسبة للأذن البشرية، وكذلك الزمان بالنسبة للوعي البشري.

إننا لا نعيش داخل العالم كما هو، كما لا يمكننا ذلك، وهذا من حسن الحظ، لأنه سيكون قاتمًا بلا ألوان، صامتًا بلا أصوات، مجرّد ركام من الحوادث المتلاطمة بلا قبل ولا بعد، بلا ماضٍ ولا مستقبل، مجرد فوضى وعماء، مجرد غلَيان.

فعلًا، إننا لا نستطيع أن نعرف العالم في ذاته كما قال كانط وشوبنهاور، غير أننا لا نستطيع بالأحرى العيش فيه، سيكون عالمًا بلا ألوان، بلا أصوات، بلا لغة، بلا زمان، بلا ماض، بلا حاضر، بلا مستقبل، وبالتالي بلا وعي، بلا ذاكرة، بلا حلم، بلا حكاية، وفي النهاية بلا حياة، أقصد بلا حياة ذكية.

ليس العالم جميلًا، لكن الجميل بالفعل هو كيفية إدراكنا للعالم.

كما أن طريقة إدراكنا هي التي تجعل الحياة جميلة، طيبة، جديرة بالحياة، أو قد تجعلها خلاف ذلك، عبئًا ثقيلًا يجدر التخلّص منه على وجه السرعة.

هنا بالذات تكمن وظيفة الحياة الذكية.

لكن هنا أيضًا يكمن ذكاء الحياة.

لأننا نحب أن نحدّق في النجوم

نحن الثدييات الوحيدة التي تتيح لها أجسادها إمكانية النظر إلى النجوم. هذه الميزة أو المزية هي ثمرة تاريخ طويل من التطوّر البيولوجي الذي استغرق ملايين السنين من المثابرة والكفاح. ذلك أنه بالموازاة مع سيرورة انتصاب العمود الفقري، بدأ مجال

رؤية العين البشرية يتّسع ويتخطّى نطاق الطرائد والثمار، إلى أن صار الإنسان قادرًا على النظر إلى الأفق البعيد، ثم مشاهدة نجوم الليل المتلألئة، والتأمل في زرقة الفضاء اللامتناهي، فكان لذلك كلّه أثر على نشوء وتطور العقل البشري، وبالتالي ظهور الأساطير والديانات والفلسفات.

والحال كذلك، ليس مصادفة أن تكون العين حاسّة العقل: النظر، النظرية، وجهة النظر، زاوية النظر، الرؤية، الرأي، إلخ، كما تتوفّر معظم اللغات على ألفاظ تدلّ على نوع من المماثلة بين العين والعقل. ولا غرابة أن نستعمل عبارة «عين العقل»، طالما من طبع اللغة أن تقول عنّا ما لا ننوي أن نقول.

ليس مصادفة كذلك أن تتعلّق أولى الحضارات القديمة بالأبراج، سواء منها التي تحيل إلى البنايات الشاهقة، أو التي تحيل إلى منازل الكواكب والنجوم. لقد ساعد التأمل في السماء أولى الحضارات القديمة على تقسيم الأيام والشهور والأعوام، وتحديد مواقع النجوم، وبالتالي القدرة على التموقع في الزمان والمكان، والتي هي من أهم مظاهر الوعي البشري.

كانت خطة الحياة محكَمة إذًا!

طالما غاية الحياة هي الانتشار في كل أبعاد المكان، بوسعنا أن نؤرّخ للحياة الذكية بنحو يجعلنا نراها اليوم واقفة على عتبة الدخول من عصر الانتشار الأفقي إلى عصر الانتشار العمودي.

لقد انتهى الانتشار الأفقي الذي استغرق آلاف السنين إلى غزو الأرض طولًا وعرضًا، عبر تاريخ طويل من الغزوات القبلية،

التوسّعات الإمبراطورية، الكشوفات الجغرافية، الحملات الاستعمارية، والتوغل في الصحاري والمغاور والبحار، وصولًا إلى اتساع شبكات الاتصال والمواصلات الحديثة، ثم العولمة التي صيَّرت الأرض قرية صغيرة كما يقال، فضاقت الأرض بما رحُبت! من ثمة جاءت حاجة الحياة اليوم إلى اندفاع جديد، وأفق آخر للانتشار، لن يكون سوى الانتشار العمودي هذه المرة، والذي قد يمثّل البداية الفعلية لطريق الحياة الذكية في رحلة اللانهاية، طالما الارتفاع لا حدود له.

سيبدأ الانتشار العمودي للحياة خلال العقود القادمة، وسيكون سباقًا ملحميًّا ضد ساعة الانقراض، عبر مشاريع عملاقة لاستيطان الكواكب والأقمار، وإلى الأعلى أكثر فأكثر، وسط ملايين المجموعات الشمسية بكل احتمالاتها ومفاجآتها. ولقد قالها ستيفن هوكينغ قبل وفاته: لكي يستمر الإنسان يجب أن يستعد لمغادرة الأرض والاتجاه نحو النجوم.

نضيف، لم تقرّر إرادة الحياة أن تخلق الحياة الذكية إلا لأجل أن تساعدها في تفادي الانقراض الذي ضرب الأرض مرارًا، ولا يزال يهدّدها.

عمر الأرض قصير، عمر المجرّة أطول لكنه محدود، عمر الكون مهما طال فبدوره ينتظره سقف أخير، غير أن طموح الحياة الكونية مفتوح على الأبدية.

هنا يبدو أنصار «ما بعد الإنسانية» أقرب إلى إدراك حقيقة الحياة حين يزعمون بأن الشيخوخة -وبالتالي الموت- ليست من صميم

الحياة. إذ يمكن أن تكون الحياة من دون شيخوخة، كما يمكنها أن تكون بالتالي من دون موت.

الموت ليس قدَر الحياة، حتى وإن كانت قوانين الفيزياء هي التي تفرضه على الحياة عنوة. تحديدًا فإن النوايا الحقيقية لقوانين الحياة هي الحياة الأبدية، هذا هو الإحساس الذي يستبطنه الجسد قبل أن تفاجئه الشيخوخة أو ساعة الاحتضار، وذلك رغم القدرة على التوقّع والتي تظلّ في المستوى الافتراضي. وفي النهاية فإن قوانين الفيزياء والكيمياء تحتفظ بالكلمة الأخيرة.

لأجل النوايا الحقيقية للحياة، الدوام، فلا أحد يعرف ما الذي يمكن للحياة أن تخبّئه من أجندة للعقود القادمة، للقرون القادمة، وللألفيات القادمة.

الفصل السادس

معنى الحياة الذكيّة

ذكاؤنا من ذكاء الحياة

إذا كان دور الذكاء البشري تعديل البيئة المعادية للحياة، وذلك استجابة لأجندة الحياة، فالمعضلة بعد ذلك تكمن في أن الإنسان لا يعرف على الدوام كيف يستعمل ذكاءه. لقد ورثنا جهاز الذكاء من أسلافنا الصالحين والطالحين على حد السواء، وهو جهاز بالغ التعقيد ومعرّض للأعطال الدائمة، لكننا لم نرث معه كيفية الاستعمال، لذلك قدَر كل واحد منا أن يتدبّر الأمر بنفسه. وهذا ليس بالأمر الميسَّر للجميع.

والحال أيضًا، حين يتعلّق الأمر بآلة تنمو وتتطوّر باستمرار، سيكون من الصعب توفير كاتالوغ مناسب!

لذلك كله...

قد ينتهي المطاف بالإنسان أحيانًا إلى أن يستعمل ذكاءه ضد الحياة، بل كثيرًا ما يحدث ذلك. إن الذكاء الذي اكتشف قوانين الفيزياء هو الذي صنع أسلحة الدمار الشامل، والتي كل ما تفعله أنها تضع البشرية تحت تهديد الرعب النووي، ما يمثل تهديدًا لكل المشاعر الإيجابية التي تساعد الإنسان لكي يعيش الحياة.

وفي واقع الحال فإن الغرائز الدنيا لدينا تحمل كل الدوافع المتناقضة، إذ ما إن نهدأ حتى نغنّي مثل البلابل، وما إن نغضب حتى نصرخ مثل الوحوش. بين هذا الفعل أو ذاك تبقى جميع الممكنات كامنة.

حسنًا، حين لا نحبّ الموسيقى والغناء لأي علة أو عذر أو ذريعة فلنا أن نتصوّر النتائج المحتملة!!

في سياق نمو الحياة وُجد الذكاء بقدراته الحيوية على التذكّر والتخيّل. لقد وفّرت الذاكرة للإنسان العاقل فرصة تذكّر المخاطر لتفاديها، ووفّر له الخيال القدرة على توقّع المخاطر لاجتنابها، وهذا كله من صميم طاقة الحياة وسعيها إلى البقاء والنماء. لكن الحياة ستعاني طويلًا من سوء استعمال الذكاء، فكثيرًا ما انقلب الذكاء على الحياة، وكثيرًا ما جمح الخيال بعيدًا عما يخدم الحياة، بل كثيرًا ما استُعمِلت الذاكرة لإعاقة النمو الذي تريده الحياة. والحال أن معظم مهندسي العمليات الانتحارية لا يعانون من قلة الذكاء، بل لديهم ما يكفي منه للتخطيط والتنفيذ، لكنهم يعانون من سوء استعمال الذكاء، سواء في المجال الخاص أم العام.

يتطلّب الاستعمال الجيد للذكاء القدرة على الإنصات إلى كل ما تطلبه الحياة، بمعنى القدرة على الصمت العميق، لا سيما في فترات الضيق والشدّة. تلك القدرة غير متاحة للجميع، لا سيما وأن الجميع أدمن على الضجيج، لكنها ثمرة اشتغال طويل على الذات، لا تشجّع عليه كثير من التقاليد الثقافية التي تمجّد الصوت المرتفع، وهو ما يجعل الكثيرين عاجزين عن حل أبسط مشكلات الحياة اليومية. ذلك العجز هو أيضا عقاب الحياة لهم.

معظم مشكلات الحياة تحلّها الحياة بأسلوبها الخاص، وليس مطلوبًا منا في غالب الأحيان سوى أن نصغي إليها ونساعدها بكل ما أوتينا من حذاقه وذكاء.

عادة ما نقول إن الزمن كفيل بحلّ هذه المعضلة أو تلك. إن ما نسميه بالزمن هنا هو الحياة نفسها بعد أن نمنحها الفرصة الكافية لكي تتصرّف بنفسها، لكي تبلسم جروح الجسد والوجدان، لكي تُقوِّم الأفعال والأعمال، فيقتصر دورنا في المقابل على مساعدتها بصبر وبصيرة، وصمت عميق كذلك.

في هذه اللحظة التي أكتب فيها هذه الكلمات، يرقد ابن جارتي منذ أسابيع طويلة في غيبوبة داخل قسم الإنعاش عقب حادثة سير مروّعة. وحيث لا يملك الأطباء أي وسيلة لإخراجه من الغيبوبة، فكل جهودهم المضنية منصبّة على حفظ الحياة في حدودها الدنيا، عند الدرك الأخير، من دون أن يجهدوا في أيّ إجراء قد يستنزف ما بقي من طاقة البقاء!

صباح كل يوم تدخل عليه أمه لكي تمنحه بعض الشجاعة، بكلام موزون وصوت حنون، عساه يصغي إلى الألفاظ بالأذن، أو يتلقّف المعاني بالقلب.

إنه قلب الأم!

يبدو أن الأطباء تفهّموا الرهان الأخير من دون تردّد.

بهذا النحو فإنهم يوكلون الأمر للحياة، عساها تقول كلمتها، وعسى كلمتها تكون هي الكلمة الأخيرة، ولو حتى إشعار آخر.

الدوافع والعقل

نتساءل على الدوام عن جدوى الإنجاب، لكننا على الدوام لا نكفّ عن الإنجاب، تمامًا كما أننا نتساءل عن معنى الحياة من دون أن نتوقّف عن مواصلة الحياة. لكن حتى يكون للإشكال معنى

معيّن علينا أن نمعن النظر في الدافع على وجه التحديد، وعلى هذا النحو يجب أن تكون الأسئلة:

ما الدافع إلى الإنجاب؟

ما الدافع إلى الزواج؟

ما الدافع إلى العيش؟

وهكذا دواليك.

بهذا النحو نستطيع أن نتقدّم خطوات إضافية في مجابهة السؤال، لماذا نعيش؟

الخاصّية التي تميّز الحياة الذكية هي قدرتها على أن تقول للدوافع الطبيعية، «لا». الحيوان يتزاوج وينجب بالضرورة، لكن الإنسان بوسعه أن يتملّص من الدافع بقرار منه. الحيوان حين يجوع ويجد الطعام سيلتهمه بالضرورة وعلى الفور، أما الإنسان فقد يمتنع عن الأكل في بعض الظروف التي قد تمسّ بكرامته الإنسانية، معتقده الديني، أو لمجرّد العناد، حتى وإن كان يتضوّر جوعًا. الحيوان يواصل الحياة بالضرورة، أما الإنسان فقد يضع حدًّا لحياته بنحو إرادي.

«أريد أن أموت»، قد تُقال بخشوع تام أثناء التقدّم بطلب الموت الرحيم مثلًا، وقد شاهدتُ مواقف في هذا الباب، فإنها اللحظة الأكثر تعبيرًا عن الإرادة الخالصة، وعن الوعي الخالص، بعيدًا كل البُعد عن غرائز اللاوعي التي تقيّد الإنسان بالحياة مهما كانت الظروف. لا يوجد فعل مماثل لطلب الموت الرحيم، إنه لحظة الحرية الأخيرة، وبالتالي المطلقة.

الإنسان حيوان يستطيع أن يقول للدوافع الطبيعية «لا». لذلك سيحتاج إلى تسطير قوانين تجعله يضبط نفسه بنفسه، إنها القوانين التي سبق أن اصطلحنا عليها باسم قوانين الحياة الذكية، وتشمل كل قوانين الحياة الاجتماعية، العلاقات العامة، والمؤسّسات.

غير أن العقل الذي يمنح للإنسان هامشًا من القدرة على التمرّد على الدوافع الطبيعية وعصيانها، يجعله في المقابل قادرًا على تنفيذ تلك الدوافع بذكاء أكبر، حين يقرر ذلك بشيء من الحكمة والتعقّل. وذلك هو المطلوب.

ليس مطلوبًا من الإنسان أن يتمرّد على خطة الحياة، طالما أنه جزء من الحياة، كما ليس مطلوبًا منه أن يطيعها طاعة عمياء، طالما أنه جزء من الحياة الذكية، بل المطلوب منه على وجه التحديد أن يتعامل معها بأكبر قدر ممكن من الذكاء، وذلك بأن يفهم ما تريده الحياة في كل مرحلة من مراحل نمو الفرد، وتطوّر النوع البشري، ويتجاوب مع حاجياتها بالنحو الذي يجعله لا يخسر هامش الحرية والكرامة لديه.

مثلًا...

إن الأزواج المثليين الذين قالوا «لا» للضرورة الطبيعية، والتي اعتادت أن توجّه الزواج نحو الإنجاب، هم أنفسهم الذين ناضلوا طويلًا من أجل الحق في التبنّي، قبل أن يحقّقوا مطلبهم في النهاية. إن ضمان الرعاية الأسَرية للأطفال الصغار هو بمثابة تنفيذ لإحدى الحاجيات الأساسية للحياة، بما يعنيه ذلك من تدبير للتوافق بين رغبات الذات وإرادة الحياة.

إنه ذكاء الحياة الذكية.

وإنه ذكاء الحياة.

ذلك أن الحياة تستطيع أنْ تُمرّر أجندتها حيث لا أحد يتوقّع ذلك.

الحاجة إلى الخيال

لو أننا سألنا طلبة العلوم عن المهارات التي يحتاجها العالِم اليوم، لجاءت الأجوبة بلا مفاجأة على منوال الكلمات التالية: الملاحظة، المقارنة، الحساب، القياس، التحليل، التركيب، إلخ. لكننا لو سألنا كبار العلماء لجاءت أجوبتهم في كلمة واحدة: الخيال.

لماذا؟

ما إن نتوغّل في العوالم اللامتناهية في الكبر (الكونيات)، أو في العوالم اللامتناهية في الصغر (الكوانتوم)، حتى تطرأ تغيرات في المنهج يحتاج معها العقل إلى الاستعانة بملَكة الخيال، حيث يصبح الواقع العلمي مفارقًا للواقع الحسّي، وتكثر الموجودات الافتراضية على حساب الموجودات الواقعية، وتفتقد معظم الفرضيات إلى القدرة على مطابقة نماذج الواقع مع أنها صالحة نظريًا وحسابيًا، فيضطرّ العقل العلمي إلى التعامل مع فرضيات «غير واقعية».

فضلًا عن ذلك فإننا لا ندرك العالم إلا في أربعة أبعاد: الطول، العرض، الارتفاع، والزمان. لعلّنا نتفوّق ببُعد الزمان على سائر الحيوانات، غير أن الاحتمال الغالب على الفكر العلمي اليوم أن

عدد الأبعاد أكبر من ذلك، ربما بفارق كبير. ما يجعل الحياة الذكية قاصرة عن إدراك «حقيقة الأشياء».

بل، حتى بعد الاستعانة بأرقى أجهزة التكنولوجيا المتطوّرة، فإننا لا ندرك -كما يؤكّد علماء الفيزياء اليوم- إلا نحو خمسة في المئة من «الكون المدرَك»، والباقي يندرج ضمن مسمَّيات «غامضة»، أو هي غامضة في ذهن العموم، من قبيل المادة المظلمة، الطاقة السوداء، الثقوب السوداء، إلخ. ما يعني أننا كلما وسّعنا من دائرة المعلوم اتسعت دائرة المجهول، كما لو أننا في حلقة مفرغة. وهو ما يهدّد بحرمان المعرفة من الجدوى! وإلا فما جدوى المعرفة إذا كانت كل ما تحقّقه أنها توسّع من دائرة المجهول؟!

يبدو أن أزمة المعنى قد لا تقتصر على الحياة وحسب، بل قد تطال أحد أهم أنشطة الحياة الذكية: المعرفة.

ما القول إذًا؟

لو أنك سألت اليوم أيّ عالم للكونيات، لماذا تريد أن تعرف الحجم الحقيقي للكون؟ لماذا تريد أن تعرف عدد المجموعات الشمسية في درب التبانة؟ لماذا تريد أن تعرف طبيعة الثقوب السوداء؟ فالإجابة على الأرجح هي، لا أعرف، لكنّي أشعر بدافع قوي! ذلك الدافع يسميه البعض إرادة المعرفة، لكن الحقيقة أن لا وجود إلا لإرادة واحدة هي إرادة الحياة.

إن الدافع الحقيقي إلى المعرفة هو إرادة الحياة نفسها، والتي تسعى للذهاب إلى كل مكان وفي كل الاتجاهات، وتسعى إلى معرفة بيئتها ومآلاتها الممكنة. هنا تصبح الإجابة واضحة، نريد أن

نعرف كل شيء عن الكون والجُسَيمات والثقوب السوداء والطاقة لكي نعرف مصير الكون والمادة، وبالتالي مصيرنا نحن بالذات.

نريد أن نتفادى ضربات الانقراض، وذلك إلى أبعد مدى ممكن. نريد أن نعرف هل وُجدت حياة على كوكب آخر ثم انقرضت ولماذا؟ وذلك حتى نستلهم الدروس والعِبَر. نريد أن نعرف إلى أين يمكن نقل الحياة في هذا الكون الفسيح من أجل بقاء أطول ونماء أكثر؟ نريد أن نذهب بالحياة إلى أبعد مدى ممكن في الزمان والمكان.

نريد أن نمتلك المعرفة لكي نحقّق إرادة الحياة.

لقد وُجد العقل لغاية تعديل بيئة الحياة، وذلك بعد أن استنفدت رهانات الغرائز قدراتها على التكيف، غير أنّ الآليات الحسّية لا تُتيح للعقل إمكانية إدراك الواقع كما هو، وكما ينبغي إدراكه في عصر الكونيات والجُسَيمات. لأجل ذلك سيحتاج العقل إلى الخيال.

إن أهم ما يحتاجه العقل في مشاريع اليوم هو الخيال.

فالقائد الفعلي لكل مشاريع غزو الفضاء اليوم هو العقل المستند إلى قوة الخيال.

والمصمم الفعلي لأولى المستوطنات البشرية خارج كوكب الأرض هو العقل المستند إلى قوة الخيال.

والذي يستطيع أن يرى المستقبل من الآن فصاعدا لهو العقل المستند إلى قوة الخيال.

بل، حتى بالعودة إلى مشكلات الحياة اليومية الأشد وطأة

على النفوس، من ملل الحياة الزوجية إلى ألم فقد الأحبة، فإنها لا تستعصي على الناس إلا حين يضيق بهم الخيال.

تنمية الخيال تعني تنمية القدرة على الإدراك، وبالتالي القدرة على تدبير البقاء والنماء ضمن شروط تتّسم بكثير من اللاتوقع، انعدام الأمان، وانعدام اليقين.

ذلك ما تنتظره الحياة من الحياة الذكية.

إلا أن مناهج التربية والتعليم قليلًا ما تصغي إلى الحياة، وبالتالي فإنها كثيرًا ما تنتج «متفوقين» يعيشون عالة على الحياة، فلا يمضي وقت طويل قبل أن ينحاز بعضهم إلى أعداء الحياة!

نتكافل أم نتقاتل؟

يمكننا تعريف المجتمع باعتباره تجمّعًا بشريًّا متكافلًا من أجل البقاء والنماء، وهذان هما الدافعان الأساسيان للحياة التي تسعى إلى أن تبقى على الدوام، وتنمو بلا انقطاع. دوافع الحياة هي التي منحت للتجمّعات البشرية الكبرى في الحضارات القديمة قوة الجذب والقدرة على استقطاب الناس من كل الآفاق، عبيدًا، نازحين، لاجئين، هاربين، لا يطلبون سوى حصتهم من التكافل الإنساني. علما بأن التكافل الإنساني كامن في النفوس بنحو دائم، بيد أنه لا يتجلى إلا في أوقات الرخاء. يجب ألا ننسى هذا الأمر.

لأجل ترسيخ التكافل من أجل البقاء اتفقت المجتمعات البشرية على القيَم نفسها على وجه التقريب: تكافل الجيران، رعاية العجائز، العناية بالمرضى، حماية الأطفال، إلخ، وهي

القيم التي لم يكن الناس يستسيغون خرقها حتى في أوقات العنف والحروب. فمهما تدهورت الأحوال تبقى طاقة الحياة قادرة على رسم خط الرجعة الأخير، بل بإمكان طاقة الحياة أن تجد تعبيراتها حتى في حروب الدمار، ومعتقلات الإبادة، وزنازين المعتقلات.

بيد أن طاقة الحياة سرعان ما ستجد نفسها في مفارقة شائكة مثل ورطة كبرى، فدوافع البقاء التي تدفع الناس إلى التكافل في بعض الحالات هي نفسها التي تدفعهم إلى الاقتتال في حالات أخرى. هنا تكمن إحدى مفارقات الحياة والتي أوكلت للحياة الذكية مهمة حلّها، فهل تستطيع؟ يتعلّق الأمر بمهمة بالغة الصعوبة طالما المفارقة متجذّرة في عمق الحياة: نتعاون من أجل البقاء لكن البقاء أحيانًا يكون على حساب بعضنا بعضًا. إنها المفارقة التي لم يحسمها عصر الأنوار، فأورثها للعصر الذي يليه.

بإمعان النظر في الحياة يظهر أنها رسمت منذ البداية أفق الحل الممكن، ويكفي أن نستحضر تطوّر مبدأ تكافل البقاء لكي نتأكّد من ذلك: في مواجهة تحديات البقاء التي تعرّض لها الإنسان منذ ظهوره على وجه الأرض، خضع مبدأ التكافل لأجل البقاء إلى ثلاثة تحولات كبرى، بدءًا من عصر القطعان البدائية ووصولًا إلى عصر المواطنة الكونية:

أولًا، مرحلة التكافل من أجل بقاء القطيع (العشيرة، القبيلة، الطائفة، إلخ)، وذلك على منوال كثير من الثدييات التي تتجمّع على أساس سُلالي. غير أن القطعان ظلت تتقاتل في ما بينها على الدوام. هل كان ينبغي أن نحلم بالسلام؟ كان مخطط الحياة أذكى

من ذلك، فقد قامت الحياة بامتداح الاقتتال وتخليد الملاحم البطولية، لكنها وجهت غريزة القتال بكل دهاء نحو أفق أكبر، سرعان ما قاد إلى تشكّل الأمم والإمبراطوريات.

ثانيًا، مرحلة التكافل من أجل بقاء الأمة (المدينة، الإمبراطورية، الوطن، إلخ). ومرة أخرى ظلّت الأمم تتقاتل، فظهرت التوسّعات الإمبراطورية، والحروب الاستعمارية، ما يعني الحاجة إلى أفق أكبر من الأمة، إلا أن بلوغه بالاقتتال لم يعد ممكنا في زمن أسلحة الدمار الشامل. هنا قرّرت الحياة أن تترك كل الملاحم البطولية للعوالم البائدة، وتعوّل على العلم والفن والحكمة.

ثالثًا، مرحلة التكافل من أجل بقاء النوع البشري (ميثاق الأمم المتحدة، الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، العولمة، إلخ). صحيح أن الانتقال إلى هذه المرحلة لا يزال متعثّرًا بقدر كبير، وحسابات الصراعات الإمبراطورية والوطنية لا تزال كامنة كالألغام، لكنه الأفق الذي تسعى إليه إرادة الحياة في النهاية.

يساهم العلم المعاصر في هذا التحول الجاري، ولأجل ذلك يتحرّك العلماء، وتتحرّك المؤسسات العلمية الكبرى أيضًا، ضمن مشاريع كونية عابرة للأوطان والأمم والقارات، سواء في مجالات الفضاء، الذرة، الخلية، الذكاء الاصطناعي، أو غيرها، والهدف هو التكافل العلمي من أجل بقاء النوع البشري.

هذه المرحلة الثالثة كانت كامنة منذ البداية بفعل طاقة الحياة نفسها، لكنها لم تكن تظهر إلا في فترات الرخاء، وبنحو خافت في معظم الأحيان. كان التكافل الإنساني في حالة كمون، لكنه

كان ينتظر فرصة التجلّي والظهور، وها هي قد حانت اليوم، جراء الوعي بوحدة النوع البشري. وهكذا يقول جلال الدين الرومي: العارف هو من رأى النهاية في البداية.

بل طاقة الحياة هي التي تقول ذلك، بلسان مولانا هذه المرّة!

نقد الحاجة إلى التنافس

نعيش لكي ننمو، بمعنى لكي نكبُر، نفكّر، نحاور، نبدع، ننتج، نكتشف، نخترع، نجرّب، نتذكّر، نتطلّع، نتخيّل، نغامر، نقرّر، نحكي، نتأمّل، ونُنمي ذواتنا وقدراتنا الجسدية والعقلية على الدوام، وباختبار كل الإمكانية الكامنة. بهذا النحو نساهم في تحسين الحياة والحياة الذكية.

لأجل أن يُنمّي كل واحد منا ذاته ليس ضروريًّا أن ينافس أحدًا، ولا ضروريًّا أن يكون هناك من ينافسه، بل يكفي أن يفعل ما يحبه ويحبه بشغف، وأن يحبّ ما يفعله ويفعله بشغف، بحيث لا يهمه الاعتراف الذي يأتي على حساب الآخرين، بل يكفيه الرضا عن الذات، وهو أعز ما يُطلب في كل الأوقات.

إن ما يصدق على ألعاب القوى لا يصدق على الحياة حيث لكل واحد طريقه وطريقته.

لذلك ستكون النظم التعليمية القائمة على المنافسة، على طريقة «يجب أن تكون من الأوائل»، أكثر المؤسّسات ضررًا على الحياة. والواقع أنها مقابل كل متفوّق تنتج عشرات المرضى والمكتئبين والمصابين بالحسد والغيرة والحقد، وغيرها من أمراض الروح

التي تدمّر القدرة على الحياة، وأنّ أجيالًا من المتعلمين قد ضاعت تحت وطأة الحكم عليها بالفشل في «مدارس البقاء للأوائل».

الاعتقاد بأن التنافس الشرس بين الأفراد ضروري لأجل الإبداع والتفوّق والنمو والابتكار وتنمية الذات والقدرات، اعتقاد خاطئ وفاسد إذ يقود إلى تغوّل غرائز الانحطاط وأخلاق العبيد، وقد يصيب الحضارة بالعياء، وبالتالي الوقوع في أحضان العدمية.

يكفي أن أسبقك

تقول الحكاية التي نودّ أن نستحضرها من باب الاستدلال على ما يقال، إن صديقين حميمين كانا يتجوّلان في الغابة، سمعا فجأة زئير الأسد، فشرع أحدهما في انتعال حذائه الرياضي، لكن الآخر سأله مستنكرًا، ماذا تفعل يا صاحبي، هل تظنّ أنك ستسبق الأسد!؟ ففاجأه صديقه بإجابة محبطة: لا أستطيع أن أسبق الأسد، هذا مؤكّد، لكني أستطيع أن أسبقك، وهذا كافٍ لكي أنجو.

هذه الحكاية تعكس أساس عقيدة التنافس في العلاقات بين البشر، بكل مستوياتها:

لكي أنجو يكفي أن أسبق الآخرين.

لكي أنجح يكفي أن أتقدّم على الآخرين.

لكي أفوز يكفي أن أنتصر على الآخرين.

لكي أكون متفوقًا يكفي أن أتفوق على الآخرين.

إنها عقيدة ضدّ الحياة في النهاية؛ لأنها لا تُنمّي سوى الغرائز المعادية للحياة، من قبيل الحسد والغيرة والكراهية والإحباط.

لأجل ذلك، سيكون تقويض أسطورة التنافس، والتي سبق أن اصطلح عليها أهل النقل عندنا بـ«سُنّة التدافع» (ويا لبراعة التأصيل!)، سيكون ذلك مهمة الحداثة النقدية خلال الفترة القادمة.

إن غاية الحياة أن ينمو الجميع، بدل أن ينمو البعض على حساب البعض.

غاية الحياة أن ينمو النوع البشري بأسره، وإلى أبعد مدى ممكن.

اسرع، أعلى، اقوى معًا

«أسرع، أعلى، أقوى»، هذا هو الشعار الرسمي للألعاب الأولمبية، لكنه ليس مجرد شعار للتحفيز أو التسويق، بل رهان فلسفي مفاده أن الإنسان كائن يستطيع أن يتخطى قدراته، وأن يدفع بحدوده القصوى، ويتجاوز نفسه باستمرار. الأنواع الحيوانية الأخرى كلها مقيَّدة بسقف نهائي للقدرات المتوارثة آليًّا، لكن الأمر يختلف لدى الإنسان حيث لا يوجد سقف نهائي للقدرات، والتي يمكن تنميتها بنحو متواصل وعلى الدوام.

لا يوجد سقف نهائي لقدرات الجسد، أو على حد تعبير سبينوزا، فإننا لا نعرف ما الذي يستطيعه الجسد. لذلك تبقى إمكانية تحطيم الأرقام القياسية متاحة باستمرار، وهي تمثّل في كل المنافسات الرياضية رهانًا مفتوحًا لا يخضع لأي سقف أخير.

ما الذي يجعل قدرات الجسد غير محدودة؟

مع أن الإنسان لم يُخلق لكي يحطّم جدارًا إسمنتيا بضربة يد فارغة، ولا أعرف حيوانًا يستطيع أن يفعلها، بل الراجح أن الأحجار هي التي تحطّم العظام وليس العكس، إلّا أن هناك من معلمي الرياضات القتالية من يفعلها من دون صعوبات تُذكر، مع أن اليد التي تحطّم الجدار قد تتحطّم لو وقع عليها الجدار فجأة! فأين تكمن قوة الجسد إذًا؟!

إذا كنا لا نعرف ما الذي يستطيعه الجسد، كما يؤكّد سبينوزا، فلأن القوة الحقيقية للجسد لا تكمن في الجسد، أعني بذلك أنها لا تكمن في العضلات كما قد يظن معظم الناس، بل تكمن في كيفية استعمال الجسد.

قدرات الجسد هي تحديدًا كيفيات استعمال الجسد لأجل تحقيق أهداف حركية معينة: الجري بأنواعه، القفز بأنواعه، الرمي بأنواعه، إلخ. يصدق ذلك على التمارين والمنافسات، بل يصدق حتى على الحياة اليومية: المشي لمسافة طويلة، رفع أحمال ثقيلة، تسلّق الجبل، تغيير عجلة السيارة، إلخ، وفي كل ذلك تكون قوة الجسد مرتبطة بدرجة التركيز، الدقة، المرونة، اللياقة، التناسق، وفوق ذلك كله تدبير الطاقة الحيوية للجسد بالنحو الأمثل. إذا كانت قدرات الجسد غير محدودة فلأن الجسد ليس مجرّد جسد، ليس مجرّد عظم يكسوه لحم وعضلات، بل يكمن المغنى الحقيقي للجسد في كيفية استعمال الجسد.

قدرات الجسد من حيث استعمالاته غير محدودة بالفعل، هذا ما يجعل المجال الحقيقي للمنافسات الرياضية متعلقًا بتحطيم

الأرقام القياسية، نحو سرعة أكبر، قفزة أعلى، رمية أبعد، رفعة أثقل، ولغاية تحسين تدريجي للقدرات، ثم للجينات، تساهم فيه مدارس الرياضة بجميع أنواعها، وفي مختلف أنحاء العالم.

لأجل ذلك الرهان ارتأت الحضارة المعاصرة تعميم التربية البدنية على مدارس تعليم الأطفال واليافعين في مختلف أرجاء العالم.

إذا كان مسؤولو المنافسات الرياضية قد قرّروا التشدّد في منع المنشّطات، فذلك لأن الرهان الأهم ليس الفرجة كما رأى بعض المدافعين عن المنشطات، بل المساهمة في تنمية القدرات الجسدية للنوع البشري بأكمله.

بمناسبة أولمبياد طوكيو 2021 تم تحديث الشعار الأولمبي، من «أسرع، أعلى، أقوى» إلى «أسرع، أعلى، أقوى معًا»، ما يؤكد أن الرهان الحقيقي يجب ألّا يكون فوز البعض على حساب البعض، بل الرهان أن ينمو الجميع رفقة الجميع، باعتبار ذلك هو رهان الحياة.

مؤكد أن الذين اقترحوا ذلك التعديل، هم من طينة الأشخاص الذين ينصتون جيدًا إلى ما تقوله الحياة، والذين يستحقون لذلك السبب أن يقودوا سياسة الرياضة.

وعساه مؤشر إضافي على ذكاء الحياة الذكية، ذكاء الحياة.

الفصل السابع

لماذا نعيش إذًا؟

الحياة كإجابة

أحسب أننا قطعنا خطوات لا بأس بها في رحلة السؤال. وإذا كنا قد مشينا من دون أن نتيه فهذا مكسب مهم يتحقّق فوق الحساب. إلّا أنني لا أنوي أن أستعجل الوصول قبل الأوان، ولا أنوي أن أطوي المسافة الباقية دفعة واحدة.

لأجل ذلك، سأواصل التحليل على مهلٍ، وعلى أمل استخلاص خلاصات قد تفي بالغرض وتستجيبَ لأفق الانتظار الذي رسمته منذ التقديم.

هل هناك في اللغة نوع من الأفعال بوسعه أن يقدّم لنا إجابة بليغة عن السؤال، لماذا نعيش؟ هل يمكننا أن نقول مثلًا، نعيش لكي نأكل، نعيش لكي نحب، نعيش لكي نعمل، نعيش لكي نفكر، نعيش لكي نعبد الله، إلخ، فتكون الإجابة كافية؟

هل يمكننا أن نجد فعلًا واحدًا يختزل كل الإجابات الممكنة؟

لا يمكن لأي فعل من تلك الأفعال المذكورة أن يمثّل غاية في ذاته، فلا يمكننا أن نأكل لكي نأكل، أو نعمل لكي نعمل، أو نحب لكي نحب، أو نعبد الله لكي نعبد الله، إلخ، إنها جميعها أفعال لأجل غايات أخرى هي التي تبرّرها. غير أننا لو تأملنا فيها قليلًا لوجدنا أن هناك فعلًا قد يمثّل غاية تلك الأفعال كلها. ذلك الفعل ليس شيئًا آخر سوى فعل النمو في أبعاده الجسدية، العاطفية، الاجتماعية، والروحية.

نأكل لكي ننمو ونكبر جسديًّا، نعمل لكي ننمو ونكبر اجتماعيًّا، نحب لكي ننمو ونكبر عاطفيًّا، وحتى عن العبادة يمكننا القول بنوايا حسنة بأن الرهان هو أن ننمو ونكبر روحيًّا. أنا هنا أتحدّث عن الرهان لا عن النتائج المضمونة التحقّق في واقع الحال.

على منوال هذا الاستدلال يمكننا القول، نعيش لكي ننمو ونكبُر في كل الأبعاد.

لعلها الإجابة الأكثر دقّة بالفعل، غير أن وضوحها يحتاج إلى مزيد من البيان:

ما معنى «إننا نعيش لكي ننمو ونكبر»؟

حين كنا صغارًا أو رضّعًا في المهد كان لعبارة «إننا نعيش لكي ننمو ونكبر» معنًى واضحٌ للأذهان. وهو ما يجعل تعامل الوالدين مع الرضيع، أو الطفل الصغير، يتجه صوب الهدف نفسه بلا أدنى لُبس: عليه أن ينمو ويكبر، علينا أن نجعله ينمو ويكبر، علينا أن نساعده لكي ينمو ويكبر أكثر فأكثر.

الهدف واضح إذًا.

لكن، ما معنى عبارة «إننا نعيش لكي ننمو ونكبر» عندما نكون قد كبرنا بالفعل، أو كبرنا بما يكفي لكي نعيل أنفسنا، وهو الحد الأدنى الذي يكفي للبقاء على قيد الحياة كما يحدث لسائر الكائنات الحية؟

وهل البقاء على قيد الحياة كافٍ للحياة الذكيّة، طالما قانون الفيزياء يقول كلمته الأخيرة، وهي الموت والتلاشي!؟

ما إن نولد حتى نبدأ نكبُر رويدًا رويدًا، ودور المجتمع أن

يساعدنا بكل الوسائل المتوفّرة والمتاحة. لكن ما معنى أن نكبر؟ وما الذي يكبر فينا حين نكبُر؟

الإجابة معلومة بالضرورة، يكبُر فينا الجسد والعقل والوجدان عبر سيرورة طويلة الأمد مقارنة بمدى العمر القصير، غير أن النضج لا يكتمل مع مرحلة النضج كما يتراءى للكثيرين، بل يبدأ معها. هذا التوضيح ضروري لأجل رفع اللبس، وفهم طبيعة الحياة الذكية، وإدراك ما تريده الحياة.

حتى في الأبعاد الجسدية والحركية يتواصل النضوج بعد «سن النضج» لمدّة قد تفوق عقدين أو ثلاثة، لا سيما إن كان أسلوب الحياة صحيًّا. أما في الأبعاد الوجدانية والعقلية فقد لا يبدأ النضج الحقيقي إلّا في سن متأخّرة، وقد لا ينقطع إلّا مع انقطاع النفس الأخير، لكنه في المقابل، قد لا يبدأ أبدًا حين يكون أسلوب الحياة غير مناسب، فيبقى المرء قاصرًا، ويصير عالة على الحياة.

نعيش لكي يكبُر كل واحد منا بنحو يلائم الطبيعة البشرية من جهة، ويوافق طبيعته الشخصية من جهة ثانية، معنى ذلك أن يستثمر كل واحد منّا قدره وقدراته بالنحو الأفضل، وعلى الوجه الأفضل، لغاية تحقيق بعض النماء والارتقاء، سواء في الإطار الفردي أم الجماعي.

هكذا يمكننا معاودة تعريف الحياة بأنها محاولة فردية للإجابة عن السؤال: لماذا نعيش؟

نعيش لكي يجيب كل واحد منا بطريقته عن السؤال لماذا نعيش؟ وتتعدّد الطرق بتعدّد الخلق كما يقول أهل العشق، ما يعني أن يحقق كل إنسان ذاته.

ليست الذات معطًى نهائيًا يولد دفعة واحدة مع ولادة الإنسان، بل مشروعٌ في طور الإنجاز كما يرى الوجوديون، مشروعٌ يتحقّق عبر مراحل عديدة، فلا يقطعه في النهاية إلّا الموت الذي يأتي فجأة حتى حين نتوقّعه!

الموت يقيننا الذي يفاجئنا على الدوام.

غير أن الموت لا يقطع كل شيء، فهو يقطع حياة معيّنة لكنه لا يقطع الحياة. إن سقوط ورقة ذابلة أو ثمرة ناضجة من أغصان الشجرة لا يعني نهاية الشجرة.

الحياة أكبر من الذات، أكبر من كل الذوات.

الذات قنطرة لعبور الحياة، ومطلوب منها أن تضمن للحياة عبورًا آمنا نحو حال أحسن، ومستوى أفضل، مقابل أن تحظى بقدر من الراحة والطمأنينة كنوع من الجزاء.

ينهي الموت حياة شخص بعينه لكنه لا ينهي الحياة.

أما وأننا نشعر بأن الموت يأتي في كل أحواله قبل أوانه، حيث لا أحد يأتيه بعد أن يرى أنه أكمل أعماله وأتم أيامه، فذلك لأن أعمالنا وأيامنا مجرّد قطعة صغيرة من نسيج يتجاوز الأشخاص، هو الحياة إجمالًا، الحياة بألف ولام التعريف، الحياة الكونية إذًا، أو الطاقة الكونية للحياة.

هناك سبب آخر، ألا وهو أن الحياة إجمالًا لا تستوعب مبدأ الموت الذي لا ينتمي إلى مجالها، حيث لا ينتمي الموت إلى

قوانين الحياة، قوانين النمو والتكاثر، بل ينتمي إلى قوانين الفيزياء والكيمياء، قوانين التحلل والتلاشي. الموت غريب عن قوانين الحياة التي لا تعرف غير الولادة ومن ثم النمو.

يولد الإنسان لكي يحقّق ذاته انطلاقًا من مخزونه الخاص من الذاكرة الوراثية للجسد، اللاوعي الجمعي للنوع البشري، وإرادة الحياة التي تسري فيه سريانها في الكون بأسره. هكذا، فانطلاقًا من مخزونه الخاصّ يكون بوسعه أن ينسج حياته الخاصّة خيطًا فخيطًا إلى أن ينقطع عمله، لكن الحياة لا تنقطع، وهي صاحبة الرهان والأمانة.

لا يولد الفرد كينونة كاملة مكتملة، بل يولد كينونة ناقصة ثم يحاول أن يكملها ضمن مشروع يستغرق حياته بأسرها، فإذا لم يستنزف طاقته في الفراغ، أو لم يستنزفها قبل الأوان، فسينجح بمقدار، غير أن مشروع حياته لا يكتمل مهما طال العمر أو قصر.

تلك طبائع الحياة الذكية. حياة كل إنسان هي مشروع يجب إنجازه مع أنه لن يكتمل، ذلك أنّ الموت يقطعه فجأة، حتى ولو أننا نتوقّعه في العادة.

كل ما قد يفعله جرو أو شبل عند الكبر محدّد ومحدود مسبقًا، حتى الترويض المكثف لن يغير من الحال والمآل الشيء الكثير، غير أن مخزون الرّضيع البشري من الممكنات غير محدود، كما أن ممكنات الحياة الذكية مفتوحة على طاقة الكون بأسره. ذلك ما يجعل الإبداع في الغناء أو العزف على الكمان مثلًا غير محدود، ذلك ما يجعل الإبداع في الجمباز أو الرياضات القتالية مثلًا غير محدود،

ذلك ما يجعل الإبداع في الأطعمة أو الحلويات مثلًا غير محدود، ذلك ما يجعل الإبداع في التقنية أو إمكانات اكتشاف أشياء جديدة في العلم والعالم، كل ذلك غير محدود، بل حتى أساليب العيش في الحياة اليومية البسيطة بدورها غير محدودة. لأجل ذلك تتخذ الذات البشرية شكل صيرورة لا محدودة، لا يقطعها إلا الموت، كما تتخذ شكل ممكنات غير معدودة، لا يحد منها إلا الفناء.

إذًا، ذلك الإحساس الكامن في نفوسنا بأن وجودنا دائم بلا انقطاع، ليس من باب خداع الذات أو الإصرار على الإنكار، بل لعله نابع من إحساس عميق بأن وجودنا العابر مجرّد قطعة صغيرة من مشروع كونيّ مفتوح في الزمان والمكان، إنه هذه الحياة التي تعبُرنا فرادى وجماعات، والتي لا هدف لها سوى أن تمضي إلى أقصى الحدود وإلى ما وراء الحدود، في كل أبعاد الزمان والمكان، وإلى ما لا نهاية. هذا على الأقل في مستوى النوايا الفعلية لإرادة الحياة.

ذلك الاندفاع الحيوي والملحمي للحياة، بدءًا من الجراثيم البدائية، وصولًا إلى القردة العليا، ثم الحياة الذكية، هو ما يجعل الأشياء من حولنا تتّخذ شكل حكاية.

كلنا نعيش داخل الحكاية.

الحياة على الأرض حكاية. وحياة كل واحد منا هي حكاية كذلك.

ربما هناك حكايات أخرى موازية في أقاصي الكون، أو على أطراف المجرّة، أو خلف عتبات الثقوب السوداء، أو في أكوان قد تكون موازية، أو متعاقبة.

وربما جميع الحكايات الممكنة مجرّد فصول متفرقة لحكاية كبرى لا يمكن أن تُروى لأن كل اللغات عاجزة، والذاكرات قاصرة، والعوالم الممكنة هنا غير ممكنة!

وربما تكون حكايتنا هي الوحيدة في أبدية الزمان والمكان؛ فنحن لا نعلم عن هذا الأمر شيئًا إلى حدود الساعة.

لكننا جزء من الحكاية، مهما كانت، أيًّا كانت، وكيفما كانت.

أما الموت الذي يفاجئنا رغم يقيننا بقدومه، فلن يكون سوى من باب سقوط الأوراق الذابلة أو الثمار الناضجة.

فلينظر كل واحد منا على أي وجه قد يكون سقوطه.

الحياة من وجهة نظر الحياة

حين ننصت إلى وجهات النظر الأخرى، وجهات نظر الآخرين، والتي قد لا تكون خاطئة بالضرورة، فإننا نصغي إلى وجهة نظر الحياة انطلاقًا من ذوات أخرى، تجارب أخرى، ممكنات أخرى، حكايات أخرى. بل يمكننا في كل الحكايات الممكنة أن نعاود الإصغاء إلى الحكاية نفسها انطلاقًا من سائر شخوص الحكاية. ذلك أن كل الحكايات الممكنة مجرّد هوامش متشعّبة داخل إطار حكاية كبرى تستعصي على السرد. تلك الحكاية الكبرى هي حكاية الحياة والتي لا نعيش فيها إلّا أدوارًا صغيرة وهامشية مهما بلغنا من حدود المجد.

أثناء الإنصات الجيد إلى مختلف الأشخاص، بصرف النظر عن إمكاناتهم ومكاناتهم بحسب المعايير الاجتماعية السائدة

أو الشائعة، فإننا نتقدّم خطوات في الطريق إلى وجهة نظر الحياة نفسها، وذلك بصرف النظر عن وجود أو عدم وجود مؤلّف للحكاية. بهذا النحو قد نفهم الرأي الذي اتفق عليه كثيرون من الفلاسفة اليونانيين في العصور القديمة، إن الحكيم هو الإنسان الذي اقترب من مستوى الألوهية.

أما الاكتفاء بالإنصات إلى الحكاية الواحدة، انطلاقًا من وجهة نظر شخص واحد، هو الذات في أكثر الأحيان، فهو لا يكفي للتقدّم نحو استيعاب وجهة نظر الحياة، وبذلك النحو فإننا قليلًا ما نرقى إلى مستوى التعبير عن الحياة الذكية.

إن عبارة «وفي رواية أخرى»، التي تُقال بكل سلاسة في كتب التراث الديني الإسلامي، تؤكّد حاجة كل رواية إلى روايات أخرى، فيما لو أنها أُخذت على محمل الجد، وفيما لو تم تعميمها على كل الروايات والمرويات التاريخية. فلا يقرّبنا من المعنى غير تعدّد الروايات، لا يقرّبنا من الحقيقة غير تعدّد الشهادات، ولا يقرّبنا من الحياة غير تعدّد الحكايات.

لأجل أن نستوعب وجهة نظر الحياة في الحياة، لا تكفينا حياة واحدة، ولا تكفي حياة شخص واحد أو أشخاص معدودين.

المطلوب كما قلنا أن نحسن الإنصات إلى أكثر ما يمكن من الحكايات الأخرى، حكايات الآخرين، والتي هي حكاية الحياة انطلاقًا من أشخاص آخرين، انطلاقًا من حالات خاصة. إن كان ذلك كلّه لا يكفي فإنه يفي بالمطلوب، ولو في حدود الممكن.

في كل حكاياتنا المعتادة نحتلّ موقع الشخصية المحورية بلا

منازع، نكون نحن الأبطال، أو نكون على الأقل في موقع التماهي مع البطل، بل كثيرًا ما نكون في مركز العالم بامتياز، ويصير سائر الناس على هامش الحكاية.

لأجل ذلك نحكي عن أنفسنا باستمرار.

لكن...

لأجل إحراز نوع من التقدّم في اتجاه الإلمام بوجهة نظر الحياة حول الحياة، يجب الإصغاء إلى كثير من الحكايات الأخرى، حكايات الآخرين.

التعاطف مع حكايات الناس

إذا كانت حكايات الناس تدفعنا إلى التعاطف معهم، فلأن الحكاية تمثل وجهة نظر الحياة انطلاقًا من كينونات أخرى، ممكنات أخرى، وتجاوب أخرى. لأجل ذلك يلجأ كثيرون من المتسوّلين إلى حبك الحكايات لأجل اقتناص أكبر قدر ممكن من التعاطف. الحكاية فرصة لإخراج المتلقي من الذات والذهاب به إلى وجدان الغير، وهو ما يراهن عليه بعض المتسوّلين البارعين، كما يستثمره الإنتاج السينمائي كذلك. هذا الأخير لا تنبع قوته الحقيقية إلا من كونه يعبر عن إحدى حاجات الحياة، الحاجة إلى الحكايات.

غير أن الحياة أكبر من أن تعبّر عنها أي حكاية من الحكايات، أكبر من أن تحيط بها أيّ حكاية من الحكايات.

الحياة أكبر من الأدب، وأكبر من الإنسان.

بل حتى داخل حدود الحكاية الواحدة، هناك شيء لا تستطيع أن تلمّ به الحكاية، ألا وهو أن تُحكى الحكاية نفسها، في الأثناء نفسها، انطلاقًا من وجهة نظر كل شخصيات الرواية.

لو أعدنا حكايات الصيادين من وجهة نظر الطرائد والفرائس لحصلنا على حكايات مختلفة.

التاريخ البشري كتبه المنتصرون كما نعلم، ولو أعدنا كتابة تاريخ البشرية برمّته انطلاقًا من وجهة نظر الخاسرين والمهزومين والمنقرضين لحصلنا على تواريخ مختلفة.

تلك حدود الحكاية، وحدود التاريخ باعتباره حكاية كبرى للبشرية جمعاء.

إن أصوات الآخرين قد تكون هي أصوات الحياة نفسها، لكن انطلاقًا من ذوات أخرى، ومع أنها قد لا تكون ذواتًا رئيسية في الحكاية، إلا أنها قد تكون ذواتًا رئيسية في الحياة.

للحياة معاييرها.

معايير الحياة

مجمل القول: للحياة معاييرها التي قد تكون خفيّة لكنها متجذّرة، وتحتاج بالتالي إلى حُسن الإصغاء.

إن راعي الغنم الذي خاطر بحياته لينقذني بعد أن وقعت في سيل الوادي وعمري لا يتعدى ثلاث سنوات، ليس بطلًا في أي حكاية، وليس شخصية رئيسية في أي حكاية، لكنه شخصية رئيسية بالفعل ضمن حكاية الحياة التي لا يمكن أن تُروى بأكملها.

بقية الحكاية ما يلي:

لقد بحثت عنه كثيرًا لأجل أن أتعرَّف إليه، عساني أستذكر الرائحة التي شممتها في جلبابه البدوي عندما حملني، وعندما علم أني أبحث عنه تذكّر الحكاية بكامل تفاصيلها ورواها لأبنائه وأحفاده. ومع أنه كان وقتها طريح الفراش إلا أنه رواها لهم بفرح كبير، كان ذلك الفرح بحجم الفرح الأخير، فقد كان يُحتضر -هذا ما قاله لي الأبناء- وعندما وصلت إلى باب بيته كان قد مات. لقد مات بفارق ساعات قليلة عن وقت وصولي.

فعلًا، يحدث في كل الحكايات أن يطير الملاك قبل أن نراه.

إن الحكاية التي نحكيها من وجهة نظر شخصية معينة ستختلف كليًّا حين تُحكى من وجهة نظر شخصيات أخرى. إن ما تحكيه حياة شخصية عن الحياة لا يمثل سوى الحياة انطلاقًا من وجهة نظر شخصية.

أما الحياة فهي أكبر من أي حياة شخصية، أكبر حتى من كل الحيوات.

حين نحسن الإصغاء إلى شخصٍ معيّنٍ فإننا نصغي إلى الحياة انطلاقًا من ذلك الشخص، وحين نستطيع الإصغاء إلى مئات الأشخاص المختلفين عنا في التجارب والرؤى والثقافات والديانات، فإننا نتقدّم ببضع خطوات نحو الإلمام بما تريده الحياة. ومع أننا لا نستطيع بلوغ درجة الإلمام التام، فهذا باب من أبواب المحال، إلا أننا نكون قد خطونا خطوة مهمة نحو فهم الحياة، وما تريده الحياة.

وهذا يكفي بالنظر إلى حاجياتنا وإمكاناتنا.

المعنى باعتباره إبداعًا

إذا كانت الحياة تبدو كأنها بلا معنى، وهذا لا ننكره ولا نستنكره ابتداء، فلأن المعنى إبداع لا يتحقّق إلّا من داخل تجربة الحياة، إنه إبداع يساهم من خلاله كل واحد بقدراته الشخصية، قدره الخاص، ولمساته الفنية، لغاية تحقيق ما تنتظره الحياة من الحياة الذكية: النمو، التطوّر، التقدّم، والترويج للمشاعر التي تنمّي القدرة على الحياة، سواء بين الأحبة أو سائر الناس.

تطلب الحياة من كل واحد منا أن ينمو ويزدهر وفق قدراته وقدره، في كل الظروف، وأيًّا كانت الظروف، وتنتظر منه أن يشجّع الآخرين على الشيء نفسه، وذلك حتى تنمو بدورها وتزدهر إلى أبعد الحدود الممكنة.

فماذا عساها تمنحه في المقابل؟

قلناها من قبل، إنها تمنحه الفرح، والقدرة على الفرح.

هل هذا كل شيء؟!

نعم إنه كل شيء،

لكنه أيضًا...

كل شيء.

حكمة ديوجين وحدودها

بعد أن سُجن والده وخسر كل شيء، المال، الرعاية، البيت، والجنسية، اهتدى ديوجين إلى تقبّل الخسارة، وقرّر أن يعيش متسكّعًا على سجيته، رافضًا أن يساوم الحياة والمجتمع. فقد كانت الخسارة فرصة لكي يعيش أناه الحقيقية بلا أقنعة.

عاش ديوجين متشرّدًا كالكلاب الضالة، وفق وصف البعض، لكنه عاش على سجيته يصغي لصوته الداخلي، غير مهتم بإرضاء توقّعات الآخرين، كان متسكّعًا في البراري لكنه كان سيد نفسه، كان ملك نفسه، إلى درجة أنه أثار غبطة وفضول الاسكندر الأكبر، كما تروي إحدى الحكايات.

عاش ديوجين بأسلوب يشبه إلى حد ما أسلوب تيار «الهيبيز» الذي نشأ في سنوات الستينات من القرن الماضي، مع فارق أساسي أنه عاش من دون حشيش، من دون مخدرات، من دون إدمان، بمعنى أنه عاش من دون أوهام.

كان ديوجين يعيش على سجيته في أحضان الطبيعة، من دون أن يكترث بنظرات الناس إليه، أو إلى أقوالهم عنه، ولذلك السبب أشاع عنه البعض لقب الكلبي، نسبة إلى الكلاب الضالة، لكنه بدل أن يغضب فقد قرّر أن يستوعب الموقف على طريقة «أنا كلبي وأفتخر». بل أكثر من ذلك، فقد انتهى إلى تأسيس مدرسة شهيرة في تاريخ الفلسفة، تسمى الفلسفة الكلبية.

على أن غاية ديوجين لم تكن التبشير بحياة التشرّد كما قد يظهر للبعض؛ فهو لم يختر حياة التشرّد من تلقاء نفسه، بل أُرغم عليها بعد أن سُجن والده بتهمة تزوير العملة، فوجد نفسه بلا أب، بلا مال، بلا معيل، بلا بيت، بل خسر حتى الجنسية اليونانية، وبالتالي وجد نفسه مرغمًا على حياة التشرد، بيد أنه بدّل الأسى والتذمر حوّل تلك الحياة إلى فرصة للعيش بكثافة وحكمة.

إنها حكمة الخاسرين، بعد أن يحوّلوا الخسارة إلى فرصة للحياة.

أيًّا يكن الانطباع الأوّلي حول حياة ديوجين، إلّا أن المؤكد أن داخل كل واحد منا هناك شيء من ديوجين، وعلى سبيل المثال، ما إن يجد المرء نفسه وحيدًا في خلاء مهجور، حتى يأخذ في التصرف بأسلوب طبيعي، في غياب سلطة الغير. لذلك لم يكن المنفيون إلى الجزر البعيدة يخسرون شيئًا آخر غير أنظار الآخرين، بل كانوا يفوزون بتخليص رقابهم من رقابة الغير.

يمكن اختصار حكمة ديوجين في ثلاث رسائل صالحة لكل الأزمنة والعصور:

أولًا، يجب على المرء ألا يتعلّق كثيرًا بالأشياء التي يمكن أن تنتزع منه في أي لحظة أو بكل سهولة. لأنه في النهاية عندما تنتزع منه أشياؤه كلّها، أو بعضها، سيكتشف ما سبق أن اكتشفه ديوجين حين انتُزعت منه أشياؤه كلّها: لا يُنتزع منك إلّا ما ليس منك.

ثانيًا، يجب على المرء ألّا يكترث بنظرات الناس وانتظاراتهم، طالما لا تهمهم آراؤه، بل تهمهم آراؤهم. لا يهم الناس وجهة نظر الشخص في حياته، بل يهمّهم وجهة نظرهم في حياته. إنها ثقافة القطيع.

ثالثًا، يجب على كل من تعرّض للشتم أن يواجه الشتم بعبارة، شكرًا على الإطراء، أو عبارات من ذلك القبيل. بهذا النوع من الرد يكون الإنسان سيد انفعالاته.

الحقيقة أن ديوجين عاش عيشًا حكيمًا بالفعل، عاش سيد نفسه، لم يساوم الحياة ولم يقايضها بأي شيء، تقبّل الخسارة وعاشها بالاكتفاء بالذات، وقد كان الأمر رائعًا بالفعل، إلى درجة

أن الاسكندر الأعظم قال عنه يوم التقاه: «لو لم أكن الاسكندر لوددت أن أكون ديوجين».

غير أن الوجه الآخر للحقيقة يبدو مريبًا:

لو كان الناس كلهم ديوجين لانقرض النوع البشري منذ زمن بعيد.

كان ديوجين حقيقيًّا أكثر مما ينبغي، راديكاليًّا أكثر من اللزوم.

في حين أن الحياة تحتاج إلى بعض التنازلات.

تحتاج إلى بعض الأقنعة.

الأقنعة الضرورية للحياة

لأجل أن يستمرّ النوع البشري، يجب علينا أن نتقبل بعض الأقنعة والأوهام الضرورية للحياة: الحب، الإنجاب، الاستقرار، الانضباط في العمل، إلخ.

لكن، هل يمكننا بعد ذلك، وأثناء ذلك، الاستمتاع بالتفاصيل اليومية للحياة والتخلّي عن البحث عن معنى الحياة؟

ألا يمثل هذا الحلّ مخرجًا ممكنًا؟!

أليس ممكنًا العيش بلا معنى، وذلك مثلما يعيش صياد الأسماك في جزيرة نائية، لكل يوم رزقه، لكل يوم سؤاله، لكل يوم معناه؟!

أليس ممكنا العيش في حدود وصية صاحبة الحانة لجلجامش؟!

فهكذا قالت له:

«كن فرحًا مبتهجًا مساءً

وأقم الأفراح في كل يوم من أيامك

وارقص والعب مساءً ونهارًا
واجعل ثيابك نظيفة زاهية
واغسل رأسك واستحم في الماء
ودلّل الصغير الذي يمسك بيدك
وأفرِح الزّوجة التي بين أحضانك
وهذا هو نصيب البشرية».
لكن. ويا لها من لكن...!

إلى أي حدٍّ يمكن الاستغناء عن المعنى حين يتعلّق الأمر بلحظات تحمل الألم، والملل، والفشل، والعياء، والفقد، والموت، وما أكثرها، وما أثقلها!؟

الفصل الثامن

بين الألم والملل والأمل:
تأمّل في الشقاء البشري

في حضرة الألم

لا تسعفنا اللغة في التعبير عن الألم، كل اللغات قاصرة صاغرة. إن كان يسهل علينا أن نصف الألم في مستوى التعبير اللغوي، بأنه يلسع، أو يحرق، أو يخز على سبيل المثال، إلّا أن مشاعر الألم يصعب علينا التعبير عنها، فلا تسعفنا الكلمات. الألم جحيم داخلي لا يراه الآخرون، ولا يملك المتألم وسيلة لجعل الآخرين يرونه، فيحاول التعبير عنه باللغة لكن تعوزه الكلمات ويعجز عن الكلام، فيتجرَّع إخفاقه في صمت مهيب أو همهمات لا تُفهم؛ ذلك أن أول إجراء يقوم به الألم أنه يفجر اللغة من الداخل، ولا يترك للمتألم سوى شظايا في شكل آهات وتأوّهات وصدى أنين يزعج الآخرين.

إنه الألم.

وإننا في حضرة الألم المهيب.

بعد أن يُجرّد الألم الإنسان من القدرة على التعبير، يضعه أمام خيار الكرامة الأخير، أن يدير ظهره، وينزوي في أعماق ذاته، محاولًا العمل على ترويض الوحش الذي ينهشه من الداخل، في كبرياء صامت إلى أن يقضي أحدهما على الآخر، وفي الحالتين ينقضي الأمر لا محالة.

إنه خيار الكرامة الإنسانية في مواجهة الألم، وفق رهان

الأبيقوريين والرواقيين ومن نحا نحوهم، لكنه فرصة سانحة لاختزال طريق النضج ما دام في الحياة بقية. فكلما استطاع المتألم أن يحسن أداءه في ترويض الألم استطاع أن يوفّر مزيدًا من الوقت نحو النضج. وأما عندما يتلاشى الألم فسيكون هناك شخص جديد قد ولد من رحم التجربة. الألم زائل في كل الأحوال، إن لم ينسحب راضيًا أمام قوة الحياة فإنه ينسحب عنوة أمام قوة الموت.

ينتهي الألم في كل الأحوال إما بسلام ينتظر ألمًا آخر، أو بسلام أبدي.

على أن مشاعر الابتهاج التي تغمرنا عقب زوال الألم تبقى مؤشّرًا دالًّا على أننا نضجنا بالفعل، وأننا خضنا تجربة الألم بنجاح. إن الابتهاج العميق الذي يعقب الألم هو الثمن الذي تمنحه لنا الحياة حين نمنحها النمو الذي تطلبه، بمعنى حين نكتسب مهارة جيدة وجديدة.

الألم نِزال «كُتب على الإنسان»، وهو «كره له»، لكنه ككل نزال، قد يصقل الذات ويختزل زمن النضوج حين يُدار بـ«الحكمة» و«الصبر الجميل».

نتألّم لكي ننضج، لكن المؤسف أن تجارب الألم لا تؤدّي جميعها إلى النضج. هناك أشخاص خرجوا من تجربة الألم مفعَمين بمشاعر المحبة والرحمة والتسامح، وهناك أشخاص خرجوا من التجربة منهَكين، يملأهم الحقد والكراهية والوضاعة.

إن الألم الذي صيّر المسيح في هذه المكانة الرفيعة هو الذي يصيّر الكثيرين خبثاء ومجرمين.

بين المآلين يتوقّف الأمر على مسألة التأويل:

إن الأشدّ سوءًا في تجربة الألم هو الفهم السيئ للألم، وذلك عندما يقضي المتألم وقته في التأفّف واتّهام الآخرين بأن ألمه لا يهمهم! أنا تعيس الحظ! لقد كنتُ في المكان الخطأ! لم يرحمني أحد! الجميع خذلني! الجميع تخلّى عني! إن تفكيرًا كهذا لن يثير سوى مشاعر السخط والأسى والتذمّر، وهذه تبعث في المتألّم كل الشرور الممكنة، وسرعان ما تُحوّله من مقهور يستدعي التعاطف إلى شخص مزعجٍ مملٍّ، أو شخص يثير الرعب في النفوس.

من يتألّم بقوة قد ينضج بسرعة، هذا ما تنتظره الحياة من تجربة الألم، لكن الكثيرين يستثمرون تجربة الألم في الاتجاه الخاطئ، بما يثير فيهم السخط، والتذمر، واللوم، والندم، والأسى، وبذلك النحو يكون قد فاتهم أن يختزلوا زمن النضج، فاتهم أن ينضجوا، فاتهم أن ينصتوا إلى ما أرادته الحياة حين أرادتهم أن يصمتوا.

الصمت لغة الحياة التي تستدعي درجة عالية من القدرة على الإصغاء إلى الصمت.

وهذا بدوره تمرين دائم.

في حضرة الملل

نحن ننتظر وقت الفراغ بفارغ الصبر. ننتظره عند نهاية اليوم، نهاية الأسبوع، ونهاية العام. ننتظره في ذروة الانشغالات وغمرة الانتظارات، وننتظره لنختم به ما نظنّه عمر الشقاء والعمل! لكنه ما إن يأتي حتى يجثم علينا بكلكله الثقيل، فنودّ الهرب منه بأي ثمن،

وأحيانًا يكون الثمن غاليًا نخسر فيها الكثير. وأقصد بوقت الفراغ ذلك الوقت الذي لا نفعل فيه شيئًا ولا نجد فيه ما نفعله، بما يعزّز من نموّنا النفسي ويزيد من طاقة الحياة فينا.

وقت الفراغ هو ما نسعى إليه حين يغيب ثم نخشاه حين يحضر، نسعى للحصول عليه حين نعمل ثم لا نعلم ما نعمل فيه حين لا نعمل، نشترطه أثناء توقيع عقد العمل ثم نفرط فيه عند نهاية مدّة العمل، نحرص للحصول عليه سريعًا ثم سرعان ما نحرص على التخلّص منه.

وقت الفراغ هو ما نرجو مجيئه لكي نرتاح من ملل العمل ثم نستعجل رحيله لكي نرتاح من ملل انعدام العمل. بل قد نصرف المال لكي نملأ وقت الفراغ الذي سبق أن صرفنا العمر لأجل توفيره: مفارقة!

أن نفعل الشيء نفسه كل يوم فهذا باعث على الملل، لكن ألّا نفعل أيّ شيء طيلة اليوم أو طوال الأيام، فهذا باعث على ملل أشد إيلامًا. ولأن كان ملل تكرار الشيء شاقًا فإن ملل اللاشيء أشدّ مشقّة وشقاء.

وقت الفراغ نطلبه ثم نهرب منه، مثل الليل الذي ننتظره بشوق الحالمين، وفي جوف الليل نشعل الضوء لكي نطرد العتمة، ومثل ساعة النوم التي ننتظرها بزهو الأطفال ثم نسهرها بعصيان المارقين!

في وقت الفراغ تنكشف حقيقة الزمن الذي يتدفّق بالضرورة، حتى من غير أن يَحدث شيء ينفع النمو ويفيد الحياة، قد يتدفّق

الزمن في الخواء إذًا. هنا يكون «تدفّق الزمن هو ما يحدث عندما لا يحدث أي شيء»، وفق تعبير إتيان كلاين، بل يكون تدفق الزمن هو الحدث المجرّد عن الزمان. لعلّها مفارقة كبرى! لذلك لا يعرف الفيزيائيون كيف يحسبون سرعة الزمان رغم أنه معطى فيزيائي موضوعي، أو هكذا يعتبرونه، والسبب هو عدم وجود إطار مرجعي يمكن الاستناد إليه لحساب «سرعة الزمن». يشبه الأمر أن نكون داخل قطار مكوكي مغلق بلا نوافذ، يسير في الفراغ المطلق، لكننا لا نملك أي إطار مرجعي يتيح لنا قياس سرعته طالما لا نستطيع الوجود خارجه، ولا النظر إلى الخارج. بل لا نستطيع الادعاء بأن الزمن يتحرّك إلا تجاوزًا أو مجازًا، طالما هو موجود في الفراغ، وطالما لا يمكننا الحكم على شيء بأنه يتحرّك إلا استنادًا إلى شيء آخر أو أشياء أخرى تمثّل إطارًا مرجعيًّا لتحديد الحركة والسرعة والاتجاه.

من منظور الوجود المادي للأشياء لا نملك اليقين حول ما إذا كان الزمن يتحرّك أم لا؟ لكن من منظور الوعي الإنساني يبقى تدفّق الزمن حدثًا فعليًّا يحدث بمعزل عن سائر الحوادث كلّها، بل حدثٌ دراماتيكيٌّ يُخلّف آثارًا حزينة في الذاكرة؛ ذلك أن الذكريات الجميلة تترك حنينًا حزينًا إلى المفقودات، والذكريات القبيحة تترك ندمًا حزينًا على المتروكات.

الزمن الفارغ مثل المكان المقفر الذي تأباه النفس وتنفر منه، لكنه يجسّد المعنى الحقيقي للمكان، المكان المجرد عن الأشياء والمثير لمشاعر الوحشة الرهيبة. كذلك هو الوقت الفارغ باعتباره

زمنًا مقفرًا تأباه النفس، غير أنه يمثل المعنى الحقيقي للزمان، الزمان الفارغ من أيّ حادث والذي يثير بدوره مشاعر الوحشة الرهيبة. لذلك يمثّل السجن الانفرادي العقوبة الأشدّ قساوة طالما يضع السجين في مواجهة زمن فارغ من الحوادث، الحكايات، والمفاجآت. المكان الخاوي موحش، والزمن الخاوي بدوره موحش، وهما يكشفان حقيقة الوجود الذي ليس سوى فراغ يملأه الإنسان بالأعمال، ثم يكمل الفراغات الباقية بالحكايات. ذلك هو الدور الملحمي للإنسان.

الوقت الفارغ مملّ ويمكن أن يتحوّل إلى جحيم على النفس وحتى على مسار الحياة، إنه موحش بالفعل، ومع أنه يقدّم للبعض فرصة سانحة للتأمل الهادئ والارتقاء بالنفس، فرصة للبعض لمجالسة الذات، مساءلة الذات، ومصارحة الذات، إلا أنه كفيل بإثارة الخوف الكامن في وجدان معظم الناس...

وقت الفراغ فرصة سانحة للاشتغال على الذات، أو هذا ما تنتظره الحياة، لكن معظم الناس لا ينصتون إلى رسالة الحياة، فتجازيهم الحياة بجحيم الملل الأليم. فلا يمضون في أي مكان إلا بضعة أيام قبل أن يجثم عليهم الملل ليأخذهم إلى مكان آخر، بلا طائل، وقد يجرّهم نحو تصرّفات مؤذية دافعها السرّي يبقى هو الملل.

ربما قد نحسد الإنسان البدائي على عدم معرفته للملل، فالإنسان يشعر بالملل حين يمتلك الوقت الزائد على حاجاته الطبيعية المتمثّلة في الصيد من أجل الأكل، والتناسل لإكثار النوع، والنوم من أجل الراحة، وذلك بسبب التحوّلات التي طرأت على

نمط الإنتاج، وتقسيم العمل، وتراكم الثروة، وظهور أنماط الرعي والزراعة والاستقرار، التي أنتجت بدورها فئة من الناس تعيش من جهد الآخرين.

لم تكن ظروف الإنسان الصياد البدائي تسمح له بأن يملك وقت الفراغ، فقد كان جهده اليومي للحصول على الطعام وتفادي المخاطر يتطلّب تنبّهًا وتركيزًا طوال النهار، ولم يكن لديه اكتفاء من الموارد الغذائية، فقد كانت معركة الجوع بالنسبة لإنسان الكهوف والأدغال معركة يومية. غير أن الراعي الذي سيظهر لاحقًا سرعان ما سيشعر بأن عمله لا يتطلب هذا النوع من الاستنفار المستمر طوال الوقت، وبات لديه نوع من الأمان ووقت للتأمّل والإبداع فاستعان بالناي والمزمار والقيثارة والشعر والغناء، لتلبية الحاجة إلى النمو الروحي وكسر الملل، ولا ننسى أن داخل الزمن الفارغ للرعاة تطوّرت أشكال الموسيقى الرعوية العريقة في الحضارات القديمة جلّها. والقول نفسه ينطبق على مجتمعات المزارعين، حيث بين الحرث والحصاد، ثم بين الحصاد والحرث، هناك زمن فارغ يستدعي أنشطة غير مرتبطة بالضرورة الطبيعية.

الزمن الفارغ هو الزمن الذي سيحاول الإنسان أن يملأه بأنشطة لا تنتمي إلى مجال الضرورة الطبيعية، أنشطة متنوّعة من قبيل النحت، والرسم، والموسيقى، والكتابة، والرقص، وغيرها، وبالموازاة كان العقل يتطوّر رويدًا رويدًا، بدءًا من عصور السحر والخرافة، ووصولًا إلى عصر العلم والمعرفة.

لم يظهر الملل إلّا مع ظهور إنسان الحضارة الذي وجد نفسه

أمام وقت زائد على حاجاته الضرورية، فواجه السؤال المقلق، أين يُمضي أوقات فراغه؟ وهكذا، إضافة إلى إبداعات الفنون التي تتغيّر مع كل عصر، أضاف التنزّه، الفرجة، الاحتفال، الاكتشاف، الرحلات، الكتابة، إلخ؟ ذلك ما كان، وقد أبدع في ذلك كلّه إبداعًا جميلًا، وشيد الحدائق، والمسارح، والمتنزّهات، وغيرها. رغم ذلك، فإنّ كل هذا لا يغطي كل وقت الفراغ، ولا سيما لدى طبقات وجدت نفسها غير مضطرة إلى العمل.

التأمّل يقاوم الملل.

لقد اهتدى إنسان الحضارة إلى التأمّل باعتباره أهم ترياق توفّره الحياة الذكية للملل، فكان طبيعيًا أن تظهر الفلسفة ضمن الأوساط الأرستقراطية للمدن، حيث يوفّر الاكتفاء الذاتي وتقسيم العمل كثيرًا من الوقت الفارغ.

لقد تطوّر العقل في سياق معركة مقاومة الملل الناجم عن الزمن الفارغ، ولا تزال المعركة مستمرة إلى اليوم، بل ثمة فرضية إضافية، مفادها أن الملل سيزداد شراسة بفعل ارتفاع معدّل عمر الإنسان جراء التطوّرات الجارية في مجال تقنيات الطب وعلم الجينات، وكذلك بفعل تمديد مرحلة الشيخوخة التي ستصبح أطول مراحل حياة الإنسان. إن ملل أيام الإجازات يعطينا فكرة عن تقاعد طويل الأمد قد يستغرق عشرات السنين من الشيخوخة.

الملل وخز الكينونة الذي يفرض على الحياة الذكية أن تغادر الزمن الدائري الذي يحكم سائر أشكال الحياة الأخرى، وأن تستكشف معطيات جديدة داخل الذات وخارجها، وأن تختبر

إمكانات مجهولة داخل الذات وخارجها، وتشقّ طرقًا غير مطروقة داخل الذات وخارجها، ومن خلال ذلك كله يمكن للإنسان أن يحقّق الارتقاء الذي تطلبه الحياة.

الملل صوت الحياة الذي يقول للإنسان:

هيا أيّها الإنسان، انهض، اشتغل، فكِّر، خطِّط، أبدع، سافر، اقرأ، اكتُب، ارسم، ارقص، تأمّل، وأثناء ذلك، بل فوق ذلك، اكتشف في أغوار نفسك ممكنات أخرى، لا تكتفي بالصورة التي تعرفها عن ذاتك، ولا تقنع بالعمق الذي تبلغه في ذاتك، ففي بحر الإنسان لا يوجد من عمق أخير.

أيها الإنسان، لا تنسَ أنك إنسان، لديك قدرات تميزك عن باقي الكائنات.

رعب أوقات الفراغ

هناك أوقات خالية من الأعمال، لا يفعل فيها الإنسان أي شيء، أو قد لا يجد ما يفعله، مثل الأماسي المطيرة، الظهائر القائظة، ساعات الانتظار، فترات الاسترخاء، وفترات المرض أو العجز.

إحدى معضلات الإنسان أنه لا يعرف كيف يمضي وقتًا لا يفعل فيه أيّ شيء حين لا يجد أيّ شيء يفعله.

لذلك، عندما لا يشغل الإنسان نفسه بعمل معيّن فسرعان ما تجمح به نفسه نحو أعمال عدوانية، كأن يخدش الطاولة التي أمامه بالمفتاح أو بالقلم، أو يشرع في تمزيق الورقة التي بين يديه بلا غاية، أو يفرك جبهته إلى أن تحمرّ، أو يفرك يديه حتى تؤلمه

أصابعه، أو ما هو أسوأ من ذلك في كثير من الأحيان كأفعال مدمّرة كأن يجنح لإيذاء نفسه أو غيره.

كان بليز بسكال دقيقًا في ملاحظته: «كنت دائمًا أقول، شقاء الناس له سبب واحد، إنهم لا يعرفون كيف يمكثون داخل بيوتهم» (الخواطر). إن ما يجعلهم لا يمكثون في بيوتهم بسلام هو أنهم لا يعرفون ماذا يفعلون في أوقات الفراغ، وما الذي يفعلونه بتلك الأوقات؟ وهذا أيضًا يندرج ضمن العوامل الأنطولوجية للطلاق، والعنف المنزلي، والتي قليلًا ما يتم الانتباه إليها.

والقول ما قاله الروائي فيكتور هوغو في (البؤساء): «هناك شيء أكثر فظاعة من جحيم المعاناة، وهو جحيم الملل».

في أوقات الفراغ نكتشف أيضًا حقيقة الوجدان البشري، حقيقة الإنسان:

في أوقات الفراغ يقف المرء وجهًا لوجه أمام ذاته لا يشغله عنها شاغل، فيحاول الهرب منها، أي من الأشباح المخيفة والمكبوتة في أعماق نفسه. ذلك ما فعله أحد شخوص الروائي ألبير كامو في «السقطة»، حين «أفنى عمره في الزواج من امرأة لا يحبها، بعد أن شعر بالملل وأراد أن يملأ الفراغ بأي شيء، ولو بالعبودية في اللاحب». هكذا قال.

لذلك، ووفق ما قاله سينيكا في العصر الروماني وأكده شوبنهاور في العصر الحديث، وحده الحكيم من يستحق أن ينعم بوقت الفراغ، لأنه يوفّره للتأمل في الكون والكينونة، وفي النهاية يستطيع أن يتأمّل في الحياة الكونية، ويستمد منها طاقة العيش.

التأمّل حياة موازية للحياة، واحتياطي ضخم لمواجهة لحظات الملل والفراغ:

قراءة بعض الروايات مع قهوة الصباح، أو موسيقى الليل، قد تدفعنا إلى عمق التأمل، وبالتالي الانفتاح على عمق الحياة الكونية؛ قراءة بعض كتب الفلسفة في محطة القطار أو أمام كورنيش الشاطئ، أو في صالات المطار، قد تدفعنا إلى التأمل في العقل البشري، وبالتالي الانفتاح على عمق الحياة الكونية؛ ممارسة بعض الرياضات في الجبال والصحاري والمتنزّهات قد تدفعنا إلى التأمل في الجمال وبالتالي الانفتاح على عمق الحياة الكونية؛ الاسترخاء على الأرائك والغرق في تأمّل الذات والكون قد يدفعنا إلى تعديل في مسار علاقاتنا أو حتى مسار حياتنا لننفتح على طاقات جديدة.

وحده التأمل يتيح للروح أن تتغذّى من طاقة الحياة، لكي تواصل نموها في كل الأوقات، بما فيها أوقات الفراغ، والتي تمثّل خطرًا حقيقيًّا على قدرة الإنسان على النمو.

وحده التأمّل يتيح لنا عبورًا آمنًا لأوقات الفراغ المرعبة التي تضطرّنا الحياة إلى عبورها، وبالتالي نستطيع أن نعبرها من دون اللجوء إلى الخمول، النميمة، الإدمان، أو نحو ذلك من أمراض الفراغ.

فخ الأمل

يشكو الناس من الحاجة إلى الأمل، ولعلهم يرجون بصيص الأمل ويطلبونه بلا ملل، وقد يظنّون أن داءهم الذي يجب الشفاء

منه هو داء فقدان الأمل. لذلك، طلبًا للأمل، قد نراهم يطرقون أبواب العلم أحيانًا، وأحيانًا أخرى يطرقون أبواب الدجل، وقد يذهب بهم الظنّ إلى أنّ الأمل شرط ضروريٌّ لأجل مواصلة العيش ومجابهة تحديات الحياة، وقد يعتقدون في المقابل بأن الافتقار إلى الأمل هو سبب تعاستهم في الحياة، وتوترهم في العلاقات اليومية، بل قد يرون أنّ فقدان الأمل هو العامل الأساسي في ضعف القدرة على الحياة، سواء في الحياة العامة أم الخاصة، وكما قال الشاعر العربي (الطغرائي) قبل قرونٍ طويلة: «أعلّلُ النفس بالآمال أرقبها، ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل». والحقّ يقال، فقد دأب الشعراء والمغنّون والساسة أيضًا على التغنّي طوال الوقت بالأمل، غير أن الشيء نفسه يفعله باعة الأوهام بالجملة والتقسيط من المشعوذين والدجّالين وممن يجدون في بيع الأمل لليائسين تجارة مربحة.

لكن، بصرف النظر عن قوة الدعاية التي يمتلكها تجّار الأمل، إلا أن الناس لديهم اعتقاد راسخ بأن الأمل ضروريّ للحياة، مثل الماء والهواء، ولذلك ينشدونه في كل الأوقات، يطلبونه من كل العتبات، ويفتّشون عنه في كل الجهات، غير أنهم في بحثهم الشاقّ عن الأمل قد لا يرون أيّ بصيص من الأمل.

فهل يقترفون خطأً في التفاصيل أم إن الخطأ كامن في المبدأ نفسه؟

لنعاود التفكير مجدّدًا في المسألة.

بما أن الفلسفة تسائل المسلّمات كما يتّفق كل الفلاسفة منذ

سقراط وأفلاطون، وبما أن غايتها سعادة الإنسان كما يؤكد معظم الفلاسفة عبر عصور طويلة، وبما أن السعادة أعزّ ما يُطلب في هذه الحياة العابرة، فلا بأس بمساءلة مسلّمة الحاجة إلى الأمل لأجل اختبار صحتها وصلاحيتها:

هل الأمل ضروريّ لأجل أن يعيش الكائن العاقل حياة حسنة، بمعنى أن يعيش حياة جديرة بالحياة؟ الإجابة التي يسلّم بها الناس والشعراء والساسة وحتى الدجالين، هي نعم بكل تأكيد، غير أن الفلاسفة لهم رأيٌ آخر ورؤية أخرى إلى المسألة.

قد يبدو أنّ رأي الفلاسفة صادم بادئ الأمر للكثيرين، لكننا بعد أن نصيخ السمع كما ينبغي سنكتشف أن ما يقولونه هو عين العقل ورأس الحكمة، بل يمثل نوعًا من البداهة المنسية، فيما قد يحيلنا إلى معادلة سقراط الشهيرة، «المعرفة تذكّر والجهل نسيان».

ما رأي الفلاسفة في مسألة الحاجة إلى الأمل؟

باستثناء عدد قليل منهم مثل روسو وهيجل وماركس، يعتقد معظم الفلاسفة في تاريخ الفلسفة أن الأمل ليس بالأمر الإيجابي لكي يعيش الإنسان حياة جيدة، بل على العكس، ذلك أن التعلّق بالأمل يمثل مصدرًا غير متوقَّع من مصادر الشقاء البشري.

كيف ذلك؟

لأجل توضيح المعادلة، يكفي أن نستعرض خلاصة مجمل المطارحات الأساسية للفلاسفة عبر تاريخ الفلسفة، وبوسعي أن أبسُطها مقتضبة على المنوال التالي:

أولًا، وفق مبادئ الفلسفة الرواقية (زينون، إبكتيتوس،

ماركوس أوريليوس) لا ينتج الأمل سوى الخيبة والإحباط طالما لا يمكن للأشياء أن تأتي وفق توقّعاتنا بالتمام، مهما حاولنا ذلك. مثلًا، نأمل أن يأتي زواجنا وفق توقّعات نرسمها في أذهاننا مسبقًا سواء من حيث الأجواء العاطفية أو المتطلبات الاجتماعية، غير أن الواقع لا يهمه أن يُرضي توقعاتنا، الواقع يشقّ طريقه بقوة الأشياء ولا يترك لنا سوى هامش ضئيل للمناورة. لذلك، على قدر التعلّق بالأمل في تحقّق التوقّعات تأتي الخيبة والإحباط وبالتالي الشقاء البشري. لكن ليس مطلوبًا من الإنسان ألّا يتوقع أي شيء بل المطلوب بالأحرى ألّا يتعلّق بالتوقعات التي رسمها، وأن يبقى بالتالي مستعدًّا للتعامل مع احتمالات الواقع كلّها.

ثانيًا، بحسب كثيرين من الفلاسفة القدامى والجدد (سينيكا، شوبنهاور، سبونفيل، وغيرهم)، لا يُحزننا الأمر الذي يحدث إلّا بقدر الأمل في ألّا يحدث، ولا يحزننا الأمر الذي لا يحدث إلّا بقدر الأمل في أن يحدث. مثلًا، لا يحزننا المرض الذي يصيبنا إلّا بقدر أملنا في أن نشفى سريعًا أو في ألّا يصيبنا أيّ مرض، وكذلك الأمر حين يمرض آباؤنا أو أبناؤنا، كما لا يحزننا الزواج الذي لم يتحقّق لنا، أو السفر، أو الثراء، إلّا بقدر ما كنا نأمل في تحققه، وهكذا دواليك.

ثالثًا، بحسب سبينوزا يندرج الأمل ضمن الانفعالات الحزينة التي تصيب الإنسان بالشقاء والتوتر والتعاسة، وبالتالي تهدّد قدرته على النمو والحياة. لذلك قد لا يطيل عذاب الإنسان إلّا الأمل، كما يؤكّد نيتشه. مثلًا، النساء المطلّقات اللواتي عشن

على أمل عودة الزوج السابق كنّ الأكثر شقاء، في الوقت الذي كان فيه «اليأس من العودة» دافعًا للكثيرات إلى إعادة بناء الذات والحياة، وبعيدًا عن «نزعة الانتظار» التي تجعل البعض صيدًا ثمينًا للمشعوذين، فإنهن أحرزن نجاحًا مذهلًا في بعض المجالات.

رابعًا، تبعًا لفلاسفة العيش اليوم، يرتبط الأمل بالمستقبل، غير أن المستقبل غير موجود، أو ليس بعد، كما أن الماضي لم يعد موجودًا، فقد مضى وانقضى، في المقابل فإننا لا نعيش إلّا داخل الحاضر الذي لا نملك غيره، بل لا نوجد إلّا في الحاضر. وهو الموقف الذي تعود جذوره إلى بعض تقاليد الفلسفة الرومانية والتصوف الإسلامي. تغنّي أم كلثوم ما قاله عمر الخيام: «غدٌ بظهر الغيب واليوم لي». هذا ويدل اليوم على اللّحظة الحاضرة.

خامسًا، ليس الأمل سوى شبكة من الأوهام التي توظّفها بعض الإيديولوجيات التسلّطية، الشمولية، والخَلاصية، لغاية إحكام السيطرة على عقول الناس من خلال التحكّم في رغباتهم. وقد سبق أن أوضح جيل دولوز بأنّ من يتحكّم في رغباتك يتحكّم فيك في النهاية، وإلى النهاية.

سادسًا، تحكي إحدى الأساطير اليونانية أن زيوس خلق امرأة تدعى باندورا، وطلب من الآلهة أن تقدم لها الهدايا، فأهداها هرمس صندوقًا ذهبيًا يضمّ قيَم الشر كلها، من قبيل الكذب، والطمع، والغرور، والحسد، وغيرها، طالبًا منها عدم فتحه في كل الأحوال، لكنّها لم تستطع أن تصمد طويلًا، فقرّرت أن تفتحه في النهاية يدفعها شغف الاستطلاع، وما إن أعادت غلقه حتى

كانت الشرور قد تطايرت مثل خفافيش الظلام، إلّا الأمل الذي كان بطيئا، انغلق عليه الصندوق ولم يتمكّن من الخروج مثل سائر الشرور.

بقاء الأمل عالقًا داخل الصندوق هو السبب في أن الإنسان لا يدركه، كما لا يدرك أنه مجرّد شر من بين سائر الشرور، فيتعلّق الإنسان به، وينتظره في كل مراحل العمر، لكن التعلّق بالأمل هو أحد مصادر الشقاء البشري.

الفصل التاسع

شقاء الحياة اليومية

شقاء الحياة الزوجية

تُعتبر محاورات أفلاطون نصوصًا تأسيسية في تاريخ الفلسفة، بل هي النصوص المؤسِّسة لتاريخ الفلسفة بامتياز، إنها النبع الدافق لتاريخ الفلسفة، والذي لا تزال تتدفّق منه أهم النقاشات النظرية حول مفاهيم الخير والعدالة والسعادة.

لقد جمعت محاورات أفلاطون في طياتها بين البرهان المنطقي، والخيال الأدبي، والحوار المسرحي، وتضمّنت المحاور الأساسية في السياسة، الأخلاق، التربية، التعليم، التنمية، العلم، الرياضة، الموسيقى، وغير ذلك من أركان الحضارة. فيها يتكلّم المؤلّف، الذي هو أفلاطون، بأصوات متعدّدة وأقنعة مختلفة، فيتكلّم بصوت سقراط من جهة، وبأصوات محاوريه من جهة أخرى، تمامًا كما يفعل الممثلون الكبار على خشبة المسرح الفردي، بل يتيح للمحاورين فرصة استنفاد حججهم بلا تضايق أو ضيق. بالجملة، المحاورات تمرين في التفكير بما هو حوار ذهني مع كل زوايا النظر الممكنة.

من لا يحاور لا يفكّر.

هذا هو الدرس، لكنه ليس الدرس الوحيد. هناك دروس أخرى لا تنضب طالما النبع دافق بلا انقطاع.

في محاورة المائدة يدور نقاش شيّق حول الحب، وهل هناك

ما هو أكثر تشويقًا من الكلام عن الحب!؟ إنه فخ الحياة الجميل: ما الحب؟ ما معنى أن نحب؟ لماذا نحب؟ أو -طالما الحكاية فيها نوع من الوقوع- لماذا نقع في الحب؟

داخل محاورة المائدة كان موقف الشاعر أريستوفان أسطوريًّا، لكنه في الآن نفسه، وربما للسبب نفسه، كان الأكثر تعبيرًا عن الحقيقة المنسية، مثل الأحلام، وقد كان موقفه على النحو التالي:

في البدء لم تكن أجساد الذكور وأجساد الإناث منفصلة عن بعضها البعض، كان كل جسد يمثل مزيجًا من الذكورة والأنوثة، كان كل جسد عبارة عن ذكر وأنثى في الآن نفسه، غير أن الآلهة قرّرت في لحظة غضب أن تفصل الجزء الأنثوي عن الجزء الذكوري، فتفرّق الناس إلى ذكور وإناث، وبعد ذلك صار كل واحد يبحث عن نصفه الثاني الذي انفصل عنه.

هنا تكمن رمزية عبارة «البحث عن النصف الآخر» في رحلة البحث عن الزواج لدى تصورات الكثير من شعوب العالم، حيث يبحث الذكر عن الجزء الأنثوي الذي انفصل عنه ولا يزال ينقصه، وتبحث الأنثى عن الجزء الذكوري الذي انفصلت عنه ولا يزال ينقصها. أما المثليون فقد كان نصفهم الآخر من جنسهم. وهذا نموذج لدور «الرمز والأسطورة» في فهم مختلف الظواهر الإنسانية!

يستعيد ابن عربي أسطورة أريستوفان، ويعيد صوغها بتأويل إسلامي هذه المرّة، على النحو التالي:

عقب انفصال حواء عن آدم في الجنة (رمزية ضلع آدم)،

أصبح حب الرجل للمرأة يندرج في باب حنين الكل لبضعه، كما يندرج حب المرأة للرجل في باب حنين البعض لكله، ذلك أن آدم وحواء كانا جسدًا واحدًا قبل الانفصال، تحت مسمى آدم، من أديم الأرض. انطلاقًا من هنا نشأت رمزية البحث عن «النصف الثاني»، «النصف الآخر»، «النصف المناسب» لأجل بناء الأسرة والإنجاب.

غير أن وقوع معظم الناس في «النصف الخاطئ» هو ما يفسر ارتفاع نسبة الزواج الفاشل في كل الأمكنة والأزمنة.

هنا يكمن أحد مصادر الشقاء البشري.

في رحلة البحث المضني عن «النصف الآخر» فإن فرصة الالتقاء بالنصف المناسب بالتمام والكمال تبقى ضئيلة جدًّا، وهي الصعوبة التي تعاظمت في الأزمنة المعاصرة:

لقد أصبح العالم قرية صغيرة كما يُقال، غير أنه قرية يقطن فيها مليارات البشر، وفي غمرة هذا الزحام الهائل يصعب أن يجد المرء «نصفه الآخر» بالتمام والكمال. البحث عن النصف الآخر بات أصعب مع ازدياد أعداد البشر، ومع تزايد متطلبات الحياة ومطالب الزواج ما أدى إلى عدم توفّر الوقت الكافي، هذا ما دفع ببعض الشركات الخاصة إلى أن تدخل على الخط، تستعين بقاعدة بيانات الانترنت، وتستعمل خوارزميات بالغة الدقة، لكي تعثر للزبائن على أنصافهم المناسبة، وتساهم بالتالي في محاولة حل إحدى أكبر المعضلات العاطفية للإنسان: «النصف الآخر».

رغم ذلك كله، ورغم كل الإمكانات والحسابات، لا تزال

الكلمة العليا لضربات الحظ العشوائية، ولذلك السبب يبقى قدَر الغالبية العظمى من الناس الاختيار في حدود المصادفات الممكنة، مع الاستعداد لتحمل قسط من الخسارة، والرضا بنصيب من الإخفاق، وذلك كله ضمن ما تصطلح عليه شعوبنا باسم «الرضا بالنصيب». إنها عبارة معبّرة في ما لو فُهمت كما ينبغي.

صحيح أن عبارة «الرضا بالنصيب» عادة ما تقال بنبرة حزينة تكرّس الشقاء، لا سيما حين تقال للمرأة كما هو واقع الأمر، لكي تصبر على عنف مادي أو معنوي لا يُحتمل. لكنها حين تقال كما ينبغي وفي ما ينبغي، فإنها تعني أن فرصة أن يأتي «النصف الآخر» مناسبًا بالتمام تظل ضئيلة أو غير متاحة في أكثر الأحوال، فإنّ «الرضا بالنصيب» يصبح فنًّا ومهارةً في تدبير الحياة الزوجية، وذلك بأقل ما يمكن من التوتّر والشقاء.

يروي لنا التاريخ قصص ملايين النساء ممن فُرض عليهن زواج قهري، إما بفعل صغر السن، أو بسبب الفقر، أو نتائج الحرب، أو عقب خطف أو سبي، أو ما إلى ذلك من الأعمال التي يجرّمها العقل الأخلاقي المعاصر والمواثيق الدولية الراهنة. ومن بين القصص المؤلمة هناك ملاحم لنساء تحايلن على القدر فاستسلمن لـ«نصيب» لم يكن بالإمكان دفعه. ومن خلال استراتيجية امتصاص الضربة، حوّلن النهاية السيئة إلى بداية لمجد من نوع جديد. وإنها لإرادة الحياة في النهاية.

«الرضا بالنصيب» معناه القدرة على امتصاص الضربة التي لا يمكن صدّها، ومعناه في حالة الحياة الزوجية أن نتقبّل نصيبنا من

الخيبة في ألّا يكون نصفنا الآخر في الحياة الزوجية مناسبًا، أو لا يكون هو ما كنّا نحلم به. غير أن المصدر الحقيقي لشقاء الأزواج لا يكمن في أن النصف الآخر لا يأتي مناسبًا إلا في ما ندر، وذلك هو عوز الأكثرين، بل ينبع الشقاء من الاعتقاد بأن هناك خطأ ما في عدم العثور على النصف المناسب، والحال أن مصادفة النصف المناسب بالتمام والكمال أمر نادر الحدوث، والنادر لا حكم له.

يكمن شقاء العلاقات الزوجية في اعتقاد أحد الطرفين أو كليهما بأن الوضع كان سيغدو أفضل فيما لو أن الشريك كان على غير ما حصل في الواقع. غير أنه اعتقاد خاطئ وخطير: خاطئ لأن فرصة الالتقاء بالنصف المطابق لتصوراتنا تقارب الصفر بحساب الاحتمالات في كل الحالات؛ وخطير لأنه قد يُسبب خسائر باهظة الكلفة كان بالإمكان تفاديها بيُسر وسلاسة.

بحسب شوبنهاور، الحب هدية ممتعة ومسمومة من الطبيعة التي تخفي أجندتها السرية المتعلّقة بالتناسل والتكاثر بلا حساب، أما الانجذاب الجسدي الذي يحدث لنا في رحلة البحث عن الزواج فليس سوى تعبير عن إرادة الحياة في «تصحيح النسل»، بحيث يسعى كل طرف إلى تقويم اختلالاته الفيزيولوجية من خلال الارتباط بآخر مناسب: طول الجسد، عرض الكتفين، شكل العينين والأنف، إلخ.

بهذا المعنى، وعملًا بمقولة سقراط: اعرف نفسك بنفسك، سيبدو الأمر على النحو التالي: عندما كنتُ أبحث عن الزواج، فقد كنت أبحث بلا وعي عن نصف يكمل أنوثتي الناقصة (هرمونات

ناقصة، ثديان بدائيان، إلخ)، وفوق ذلك كنت بلا وعي أبتغي تقويم بعض «اختلالاتي» الفيزيولوجية (لستُ متأكدًا منها لكي أسردها)؛ ذلك لأن «إرادة الحياة» الكامنة في كينونتي لا يعنيها ذوقي وثقافتي وقصصي الخاصة، بل يعنيها المظهر الفيزيولوجي للسلالة البشرية. يعنيها مستقبل الحياة.

بهذا النحو أقول:

لعلي وقعتُ بدوري في الفخ بلا وعي، غير أنه فخ جميل حين أتقبّله عن طيب خاطر ورضا بالنصيب، تمامًا مثلما أتقبّل الوقوع في بعض مقالب ابنتي الصغيرة برحابة صدر وطيب خاطر.

أما الجانب المسموم من الهدية، فأحسبُ أني خرجتُ بأقل الخسائر الممكنة بفضل تطوّر العلم والطب وأسلوب الحياة المعاصرة، فضلًا عن بعض الحكمة التي تعلّمتها من الحكماء، ومحبي الحكمة الأقدمين، والضاربين في القدم.

شقاء الأبوة

نأمل أن يعيش أبناؤنا حياة أفضل من حياتنا. هذا الأمل محفوظ في الغرائز مثل القدر الموشوم، لكنه قدر محفوف بكثير من الألم. إنه قدَر مكتوب بمداد حارق بالفعل، لكنّه مكتوب في الذاكرة الوراثية لا على الجبين، عكس الاعتقاد الشعبي الشائع.

ذلك الأمل بدوره فخ كبير، مثل أي أمل آخر. لكنه الفخ الذي حبكته الحياة لأجل أن تنمو وتتطوّر على الدوام أكثر فأكثر. فليست التضحية من أجل الأبناء سوى الفخ الذي حبكته لنا الحياة لكي نضحّي من أجلها هي بالذات، من أجل نموّها جيلًا بعد جيل.

هنا يكمن الأساس الغريزي لمبدأ التقدّم التاريخي، لكن هنا أيضا يكمن أحد أوجه الشرط الدراماتيكي للوضع البشري.

ذلك أن مبلغًا حارقًا من الشقاء يغمرنا كلما خشينا أن يعيش أبناؤنا حياة أسوأ من حياتنا.

لعله كابوس كل الآباء والأمهات الذين يقضّ مضاجعهم ويجعلهم يستثمرون أحيانًا كل ما يملكون، وقد يقترضون فوقه، استجابة للدافع الغريزي الذي هو دافع الحياة نفسها نحو مزيد من النمو والنماء، لكنه الدافع الذي يجب علينا أن نطيعه بذكاء وتعقّل، حتى نكون جديرين بالحياة الذكية. هذا ما ينقص كثيرًا من الآباء والأمهات الذين ينتهي بهم الأمر إما إلى فقدان الكرامة الإنسانية أو التملّص من المسؤولية جملةً وتفصيلًا، فيلجأون إلى أحضان أي شيء آخر، أو إلى سائر الأحضان.

تقدم لنا القدرة على فهم الدوافع هامشًا، ولو ضئيلًا لأجل عقلنتها والتحكم فيها ولو في نطاق محدود، وذلك لغاية تقليص مصادر الشقاء البشري ما أمكن ذلك.

سبق لجبران خليل جبران أن قال بلسان (النبي)، كلامًا في منتهى البلاغة، يقول كل شيء، يختصر كل شيء، ولعله يغني عن أي قول آخر في المسألة:

«أولادكم ليسوا لكم، أولادكم أبناء الحياة المشتاقة إلى نفسها، بكم يأتون إلى العالم، ولكن ليس منكم. ومع أنهم يعيشون معكم، فهم ليسوا ملكًا لكم. أنتم تستطيعون أن تمنحوهم محبتكم، ولكنكم لا تقدرون أن تغرسوا فيهم بذور أفكاركم، لأن لهم

أفكارًا خاصةً بهم. وفي طاقتكم أن تصنعوا المساكن لأجسادكم. ولكن نفوسهم لا تقطن في مساكنكم. فهي تقطن في مسكن الغد، الذي لا تستطيعون أن تزوروه ولو في أحلامكم. وإن لكم أن تجاهدوا لكي تصيروا مثلهم. ولكنكم عبثًا تحاولون أن تجعلوهم مثلكم. لأن الحياة لا ترجع إلى الوراء، ولا تلذّ لها الإقامة في منزل الأمس. أنتم الأقواس وأولادكم سهام حيّة قد رمت بها الحياة عن أقواسكم. فإن رامي السهام ينظر العلامة المنصوبة على طريق اللانهاية، فيلويكم بقدرته لكي تكون سهامه سريعة بعيدة المدى. لذلك، فليكن التواؤكم بين يدي رامي السهام الحكيم لأجل المسرة والغبطة. لأنه، كما يحب السهم الذي يطير من قوسه، هكذا يحبّ القوس الذي يثبت بين يديه».

هكذا تكلم جبران، في كتاب «النبي» الذي يعتبره الكثيرون تحفته العالمية.

يمكن القول في الخلاصة:

أبناؤكم في قوس الحياة.

هي تتكفّل بالأمر، ويكفي أن تثقوا في رميتها، وتُيسّروا لها أمرها.

لماذا لا نحبّ وقت الظهيرة؟

ساعة الظهيرة هي فترة خروج الأشباح لدى الشعوب البدائية، وفترة الشيطان أيضًا بالنسبة للكتاب المقدس للمسيحية، والذي يشير في بعض مواضعه إلى «شيطان الظهيرة» قاصدًا به ملل

الظهيرة. فعلًا، كان رهبان البراري والصحاري يشتكون من ملل الظهيرة وفق بعض المرويات المسيحية. وأما في الموروث الإسلامي فهناك حديث نبوي يقول: «قيلوا فإن الشياطين لا تقيل».

الواقع أن لا أحد يحبّ أوقات الظهيرة، بل الملاحظ اليوم أن غالبية العاملين والموظفين والتلاميذ يشتكون من خمول الظهيرة بنحو قد يؤثر سلبًا على المردودية، سواء في الدراسة أم الإنتاج.

كيف نفسر هذا التواطؤ البشري على كراهية وقت الظهيرة؟

فهم الأزمة يخفّف من وطأتها. وهنا نحتاج للعودة إلى الماضي، طفولة النوع البشري.

بالعودة إلى أسلوب حياة النوع البشري طيلة مئات الآلاف من السنين من مجتمعات الصيادين، مرورًا بمجتمعات الرعاة والمزارعين، نلاحظ كيف تم ضبط إيقاع الساعة البيولوجية لأوقات العمل والراحة، بحيث تعوّد الدماغ البشري خلال أزمنة المجتمعات البدائية على أن يمضي الإنسان معظم ساعات الصباح في أعمال القنص والصيد بكل ما يتطلبه ذلك من جهد عضلي وتركيز ذهني وتنسيق جماعي وحذر شديد، لكن مع الهبوط العمودي لأشعة الشمس بعد منتصف النهار، حين تقل الظلال، وتكون الأشعة فوق البنفسجية في أعلى مستوياتها، يصبح الوقت مناسبًا لكي تعود الحيوانات إلى مساكنها، وبالتالي عودة أسلافنا إلى كهوفهم، أو الاتكاء تحت ظلال الصخور، أو أغصان الأشجار، قبل أن ينالوا جزاءهم بالتهام طرائدهم والاسترخاء لأخذ قسط من الراحة، بعد مطاردات شاقّة استغرقت من شروق الشمس إلى

منتصف النهار. هكذا، طيلة مئات الآلاف من السنين، تعوّد الدماغ البشري على ذلك الإيقاع، فمع منتصف النهار يصيبه الارتخاء في انتظار المساء حيث يلجأ إلى المكان الذي أعدّه للنوم.

اليوم تغيّر الوضع البشري بفارق كبير، فصار بإمكان إنسان المدن الحديثة أن يتواجد طوال ساعات النهار تحت ظلال سقوف البنايات والمؤسسات والأسواق والملاعب، وصار يتنقل في سيارات وحافلات لها سقف يحميه من أشعة الظهيرة، وأصبحت الإدارات والمكاتب ومراكز التسوّق ومحطات السيارات، مجهَّزة بما يكفي من المكيفات لكي تصبح مشكلة الظهيرة جزءًا من الماضي البائد، وتُنسى، حتى في الظهائر الصائفة. إلا أن المعضلة، كل المعضلة، أن الدماغ البشري غير مبرمج لكي ينسى بسرعة.

«كيد النساء» أم «قيد النساء»؟

طغيان الانفعالات السلبية على النساء، من قبيل الغيرة، الحسد، الحقد، والمظلومية، هو ما أثار حيرة شوبنهاور، ونيتشه، وحاول فرويد أن يبرّره بـ«حسد القضيب». هذا الطغيان ليس طبيعة نسائية حتى وإن ارتبط بأزمة القضيب، ذلك أن المعضلة الحقيقية لا تتعلّق بامتلاك أو عدم امتلاك القضيب، بل بالسلطة الرمزية التي منحها الإنسان العاقل للقضيب منذ الحضارات القديمة، والتي جعلته أساس مشروعية سائر السلطات الأخرى.

لقد عجز الإله الملك أوزيريس عن استرجاع العرش بعد أن فشل في استرجاع قضيبه المفقود، كما تخبرنا الأسطورة.

وقد تمكّنت زوجته إيزيس من تجميع أشلائه التي توزعت على أطراف الأرض عقب اغتياله، إلا القضيب الذي ضاع في مياه النيل والتهمته الأسماك. لذلك لم يتمكن من استرجاع السلطة، فترك المهمة لابنه من بعده.

سلطة القضيب التي يرمز إليها صولجان الملوك والكهنة، وعصا الباشوات والأئمة، هي المرجعية الرمزية لسائر السلط الأخرى: السلطة السياسية، السلطة الدينية، السلطة العسكرية، الكهانة، القوامة، العصمة، الولاية، التوريث، إلخ.

على أن طغيان الانفعالات السلبية ليس جوهرًا يخص النساء بحكم الطبيعة. ليست الطبيعة هي التي قرّرت أن تكون النساء على هذا المنوال من الانفعالات السلبية التي تشلّ العقل وتضعف الحكمة، بل يتعلّق الأمر بمعطى ثقافي ناجم عن قرون طويلة من اضطهاد «مبتورات القضيب» في ظل مجتمعات سلطة القضيب، والتي شملت معظم مجتمعات الأرض في سياق احتاجَ فيه الناس إلى مأسسة التناسل في غياب موانع الحمل ووسائل الإجهاض. مع أن المانع ارتفع اليوم بحكم الواقع، إلا أن الثقافة تساير الواقع ببطء شديد.

«كيد النساء» ليس طبيعة نسائية، بل هو مرتبط بالوضع النسائي في سياق تاريخ طويل من الظلم الاجتماعي والجنسي، وهو الظلم الذي لا يزال قائمًا في معظم مجتمعات الأرض، بما فيها العالم الإسلامي على سبيل التذكير.

إذًا ذلك الكيد من ذلك القيد.

لكنّ تحذيرًا قائمًا هناك، إذا استمرت سلطة القضيب في

ممارسة شططها على «مبتورات القضيب»، وذلك من خلال تبخيسهنّ والتنقيص منهنّ، زمنًا أطول من هذا، فسيأتي يوم لا محالة تؤثّر فيه الثقافة على الجينات بنحو يصعب تداركه، وبالتالي تتشوه طبيعة المرأة بالفعل.

الشطط يشوّه ضحاياه قبل غيرهم.

لأجل تفادي ذلك المآل يجب تدبير نوع من الخروج الآمن من مجتمع السلطة الذكورية والتمركز حول القضيب، إلى أين؟ قد نسمي البديل المتوقَّع بمجتمع ما بعد البطريركية كما يفعل البعض، أو نسميه كما نشاء، علمًا بأن التسمية يجب ألا تسبق الولادة.

يجب تدبير الخروج من ثقافة التمركز حول القضيب عبر نفقين أساسيين: الثقافة الجنسية، والتشريعات القانونية.

باختصار شديد نقول:

يجب التخلّص من مركزية القضيب في مختلف مستويات التنشئة الاجتماعية، وحتى في مستوى العلاقات الحميمة، بل في مستوى هذه العلاقات بالذات.

هنا بالذات يجب أن يسترجع الجسد بأسره حقّه في الاحتفال بالطقوس المتَعيّة. فلا يجب ألا ننسى أن جسد الرجل بدوره ضحية للاختزال الذي تمارسه مركزية القضيب، والتي تملأ قلبه بشتى أنواع المخاوف والهواجس والوساوس المرتبطة بفعالية القضيب، وعقدة الخصاء، وفقدان الرجولة التي تم اختزالها في الفحولة.

القضيب هو الخادم الذي نملكه ولا نستطيع أن نتحكّم في

أوقات عمله، بل أخشى ما نخشاه أن يعصانا في أوج انتشائنا بامتلاكه، فيخذلنا أمام «ضيوفنا».

ذلك هو الرعب المسكوت عنه لدى الرجل. على أن الرعب المسكوت عنه عادة ما يكون «أشد مضاضة من وقع الحسام المهنّد»! إلا أن الخوف من القدَر هو ما قد يعجّل وقوع القدر.

تلك هي الحلقة المفرغة لكل الخائفين.

سيكون تحرّر المرأة إذًا بمثابة تحرّر للرجل الذي يدفع ثمن طغيان من ورق.

كما يجب علينا أن نستعد بنحوٍ دائم لتعديل القوانين، لأجل مسايرة نمو الحياة، والتي صارت تنموَ بإيقاع أسرع في الآونة الأخيرة، وكذلك لأجل تذليل العوائق والصعاب، وتنمية القدرة على الحياة في كل الظروف، فضلًا عن القدرة على العيش المشترك، سواء داخل الأسرة أم في المجتمع.

هنا لا يتعلّق الأمر بسؤال الحداثة وحسب، بل إنه سؤال الواجب الذي تمليه علينا سُنّة الحياة. فلننظر إلى حال المرأة وحالنا على المرآة. عسانا نعتبر.

الشقيّ من لا يحكم نفسه

من الصعوبة بمكان أن يحكم الواحد منا نفسه بنفسه، لا سيما وأننا نعيش في عالم تتقاذفه كل أنواع الأخبار والدعاية التي تثير في النفوس أكثر الانفعالات حدّة، والتي غايتها التجييش أو التهييج، أو البحث عن نسبة المشاهدة.

من الصعوبة بمكان أن يتحكم الواحد منّا بنفسه، لا سيما وأننا نعيش في عالم تتجاذبه كل أنواع الإعلانات والإثارة التي توقظ في النفوس أقصى ما يمكن من الرغبات لغاية التسويق والاستهلاك أو لمجرد ترويج بعض السلع.

من الصعوبة بمكان أن يكون الواحد منا سيد نفسه حين يسمح للآخرين، بتواطؤ منه أو في غفلة، أن يحدِّدوا انفعالاته، يصنعون رغباته، وينسجون أحلامه، فيعيش حياته بأحلام مستعارة، بمعنى لا يعيش حياته، ولا يكون في هذه الحياة هو هو.

من الصعوبة بمكان أن يكون المرء حرًّا في قراراته، وحرًّا في قرارة نفسه، حين ينشأ في مجتمع يرسّخ فيه قيَم الحزن والخوف والسخط والطاعة والريع وعقدة الذنب، فلا يكون له إلّا أن يساير الجموع.

من الصعوبة بمكان أن يبسط المرء سلطانه على نفسه حين ينشأ منذ نعومة أظافره في ثقافة ترسّخ قيم شيطنة الأنا، والانقياد للجماعة، وطاعة الشيوخ، لغاية التحكم في روحه.

لذلك، لكل ذلك، ليس سهلًا أن يكون الواحد منا سعيدًا. فهل محكوم علينا بالشقاء المؤبَّد؟ هل قدَرنا أن نشقى في كل أحوالنا، وأينما حللنا وارتحلنا طالما نحمل شقاءنا معنا مثلما نحمل جواز السفر؟

من حسن حظنا أن عبارة «من الصعوبة بمكان» لا تعني أن الأمر محال. إن هذه الحياة القصيرة لتتيح لنا من الإمكانات ما لا يُحَدّ. يكفي أن نستعمل عقولنا في أمورنا كما ينبغي. كل الهوامش

متاحة، كل الحواشي مباحة، على أن هامش السعادة لدينا لا يتيحه إلّا وعينا، وعينا بالذات.

هذا هو المنطق والمنطلق.

مثلما أن ممكنات الحرية هي الوعي بقانون الضرورة كما يرى هيجل، فإن ممكنات السعادة هي الوعي بمصادر الشقاء كما يمكن القول، والتي ينبع معظمها من أغوار الذات. والآفة كلها أننا قليلًا ما نعي بذلك.

درس أفلاطون

طالما ليس سهلًا أن يبسط كل واحد منا سلطانه على نفسه، وليس بوسعه أن يحكمها ويتحكّم فيها كما ينبغي، فمن الطبيعي أن يغلب علينا الشقاء معظم أوقاتنا وأحوالنا، سواء أكنا فقراء أم أغنياء، سواء أكنا مرضى أم معافين، سواء أكنا ضعفاء أم أقوياء، سواء أكنا حكامًا أم محكومين. إنه الدرس الأساسي لأفلاطون. فماذا قال بالضبط؟

بحسب أفلاطون، فإن الحكيم هو من يحكم نفسه، وطالما أنه يحكم نفسه، ويحكم بالتالي رغباته التي يسميها النفس الشهوانية، كما يحكم انفعالاته التي يسميها النفس الغضَبية، فإنه يصير متخلّصًا من أحد أهم عوامل الشقاء البشري، ذلك أن المصدر الأساسي للشقاء يكمن في انفلات الرغبات (النفس الشهوانية)، وانفلات الانفعالات (النفس الغضبية). وما دام الحكيم يحكم نفسه، وهو سعيد لذلك وبذلك، فإنه يكون الشخص الأنسب لتولّي مسؤوليات

تسيير الإدارة والحكم والقضاء. إن الذي يحكم الآخرين، أو يحكم بينهم، يجب أن يكون قادرًا على أن يحكم نفسه أوّلًا، وإلّا سيكون مجرد طاغية سواء في إدارة الذات أو المؤسسات.

تلك هي المعادلة.

وكما أن الطاغية غير قادر على أن يحكم نفسه، والحديث هنا عن مجال إدارة الذات، فالأمر نفسه يصدق على المواطنين الذين لا يستطيعون أن يحكموا أنفسهم كما ينبغي، فيصيرون طغاة في كل تفاصيل الحياة اليومية، فتطغى نفوسهم عليهم، ويطغون بدورهم على محيطهم الأسري، والمهني، بل يطغون على علاقاتهم الاجتماعية كافة، وينتهي الأمر إلى أن يمارس كل واحد منهم طغيانه حيثما تمتد سلطته أو مسؤولياته أو صلاحياته، أو بالأحرى تمتد يده. مواطنون من هذا القبيل مجرد جموع من الأشقياء، وحطب للفتن والحروب الأهلية.

لا يمكن أن يكون المجتمع سيد نفسه، سيد قراراته، وسيد مصيره، ما لم يكن معظم أفراده سادة أنفسهم، بمعنى أنهم يتحكّمون بأكبر قدر ممكن في رغباتهم وانفعالاتهم. فكما لا يمكن لأشخاص مرضى أن يشكّلوا مجتمعًا معافى، لا يمكن لأشخاص متوترين أن يؤلفوا مجتمعا آمنًا.

من لا يسهل عليه أن يكون سعيدًا، لن يسهل عليه أن يكون مواطنًا بكل ما تعنيه الكلمة من معانٍ، طالما لا يحكم ذاته كما ينبغي. لهذا السبب سبق أن قال سبينوزا: لا نولد مواطنين لكننا نتعلم ذلك.

إذا كانت إحدى الصفات الأساسية للمواطنة هي القدرة على

التحكم في انفعالات النفس، بحسب سبينوزا، فعلى المنوال نفسه نستطيع أن نقول:

لا نولد سعداء لكننا نتعلم ذلك.

ليست السعادة هدية من السماء، أو ضربة حظ من الحياة، بل إنها ثمرة تمارين يومية، واشتغال دائم على الذات.

يُفترض اليوم أن يشارك المواطن في تدبير الشأن العام، لكنه لأجل ذلك يجب أن يكون قادرًا على تدبير نفسه أوّلًا، سواء من حيث رغباتها، انفعالاتها، أو أفكارها، وبالتالي يجب أن يكون قد أوتي بعض الحكمة.

هناك كمٌّ هائل من المعلومات والرغبات والانفعالات التي تُصنع لغاية ضبط المرء، وإخضاع نموّه لقوالب جاهزة، قوالب يصنعها الآخرون، أو يتوارثونها بدورهم، كما يصنعها أولئك الذين يدّعون مناهضة الآخرين، أو يتوارثونها بدورهم، وهنا يكمن أحد مصادر شقاء الناس، أكانوا يقفون في صف الظالمين أم المظلومين، يقفون في معسكر الجلّادين أم الضحايا، يقفون في طبقة السادة أم العبيد. لكن هنا أيضًا تكمن الحلقة المفرغة لجدل الجلاد والضحية.

لم يكن أفلاطون ضدّ الديمقراطية لأجل ذاتها، بل كان ضدّ الديمقراطية لأنها لا تحقق غايتها والتي هي أن يكون المجتمع سيد نفسه، وأن يحكم نفسه بنفسه، وذلك بسبب فايروس الشعبوية المزمن والملازم لها في كل أحوالها؛ فالممارسة الديمقراطية بمعناها الواسع قد لا تجعل الجماعة سيدة نفسها طالما قد

تشجع على انفلات أقصى الانفعالات (النفس الغضبية)، وأقصى الرغبات (النفس الشهوانية)، وبالتالي قد تنتهي إلى معاودة إنتاج الاستبداد في أسوأ مظاهره، والمتمثلة في اشتعال الفتن.

أليس هذا ما نراه في مختلف تجارب ما كان يسمى الربيع العربي؟!

هذا التحذير تدركه المنظومات الديمقراطية اليوم، ولذلك فقد اضُطرت إلى أن تعمل على دعم الديمقراطية بجرعات غير ديمقراطية، كإجراء وقائي لدرء المخاطر التي سبق أن حذّر منها أفلاطون قبل مئات السنين، والتي شهدتها بعض التجارب المعاصرة (صعود النازية في ألمانيا، وتجارب ما كان يسمى الربيع العربي، على سبيل المثال).

إن وجود مؤسسات دستورية عليا غير منتخَبة للسهر على الديمقراطية، ووجود قوانين الطوارئ والاستثناء والحصانة، والاعتماد على آليات الديمقراطية غير المباشرة، وإجراء الانتخابات عبر دورتين، كلّها بمثابة جرعات «تحكّمية» لأجل ألا تنقلب الديمقراطية على نفسها، أو تنقلب إلى ضدها، كما حدث مرارًا، وكما سبق أن حذر أب الفلسفة السياسية، أفلاطون، قبل قرون طويلة.

إذا كان أصل الطغيان والفتن بحسب أفلاطون هو الفشل في حكم الذات، فالآفات لا تتوقّف عند هذا الحدِّ، بل يمثّل الفشل في حكم الذات المصدر الأساسي لمعظم الجرائم التي يمكن أن يقترفها الإنسان:

ذلك أن عدم التحكم في الغيرة والغضب قد يقود إلى جرائم اجتماعية.

وأن عدم التحكم في الرغبة الجنسية قد يؤدّي إلى جرائم جنسية.

وأن عدم التحكم في الرغبة بالتملك قد يقود إلى جرائم اقتصادية.

والأمثلة قد يطول ذكرها، بيد أن العبرة بالفكرة.

الفصل العاشر

معنى الحياة الفلسفيّة

لماذا نعيش؟ هو سؤال الحياة الفلسفية

فلماذا نعيش؟

هو السؤال الذي تفرض علينا الحياة الذكية أن نجابهه في مختلف مراحل أعمارنا، لا سيما في بداية مرحلة الشباب كما سلف الذكر في بداية هذه الأوراق، وذلك عندما يشدو الشاب بأعلى صوته على منوال الأغنية الشهيرة، أريد أن أعيش، أريد أن أعيش، ثم ماذا بعد؟ سرعان ما يداهمه السؤال المقلق والمحيّر، ولماذا أعيش أصلًا؟ ما الغاية؟ ما الجدوى؟ ما المعنى؟

إنه سؤال الحياة الذكية. لكننا سرعان ما نعمد إلى نسيانه لأجل الاكتفاء بأقنعة الحياة الضرورية واليومية. بين خيار أن نظل في بحث دائم عن إجابة للسؤال، لماذا نعيش؟ وخيار أن نعيش من دون إجابة، فإننا نفضّل أن نعيش، ولو من دون إجابة، من دون معنى، ولو بالاستعانة بخلطات الأوهام أو الثرثرة أو الإدمان!

يشبه الأمر أن ينهض شخص من غيبوبة طويلة الأمد، فيجد نفسه وسط البحر على قارب بمجداف تحت جنح الظلام الدامس، ومع أنه سيطرح السؤال الكبير حول سبب وجوده هناك؟ وهو رد فعل طبيعي بالنظر إلى خصائص الحياة الذكية، إلا أنه سرعان ما سيتناول المجداف ويحاول التوجه إلى حيث يعتقد بوجود شاطئ للنجاة، أو يرى إشارة أو بشارة، وهذا طبيعي كذلك بالنظر إلى إرادة الحياة.

هناك معطى حاسم، في مجال الحياة فإن التيارات المائية والهوائية ستساهم بقدر كبير في تحديد الاتجاه، هذا ما قد يدركه المرء منذ الوهلة الأولى لمحاولة التجديف، فإما أن يستثمره بكل مرونة وتعقّل، أو سيخبط ويتخبَّط وهو يجدّف حتى الإنهاك التام.

أثناء التخبّط في التجديف يُنسى السؤال الرئيسي، لماذا أنا هنا؟ تُنسى الذات ويُلغى سؤال الذات، فيجدّف المرء بكل ما أوتي من عنف وخوف وتوجّس، وبين الفينة والأخرى ينهار، ويوشك على الهلاك مرارًا، إلى أن يهلك أو يعيش في هلاك، وإنه بذلك النحو سوف يستنزف طاقته قبل أراذل العمر، ذلك أن السؤال الذي يهرب منه يبقى شاخصًا مثل الشبح الذي ينغّص عيشه ويعجّل من إنهاكه وهلاكه، وقد يلاحقه إلى آخر الأنفاس، فيحرمه من السكينة التي يحتاج إليها الراحلون.

قليلون هم الذين يواصلون سؤال الحياة الذكية بسكينة وهدوء، لماذا نعيش؟ قليلون هم الذين يواصلون التفكير والتأمّل حتى وهم يجدفون، بمعنى يدرسون، ويتعلّمون، يعملون، يتزوجون، ينجبون، يعتنون، يساعدون، إلخ.

الذين يواصلون التفكير والتأمل في السؤال قد يصلون إلى درجة يجدّفون فيها بأعلى قدر من التوازن والطمأنينة، وبالتالي سيحافظون على طاقتهم الحيوية إلى أقصى الحدود الممكنة.

التأمل ليس مضيعة للوقت كما قد يقال، بل اقتصادٌ في الطاقة والجهد كما يجب أن يقال.

لقد سبق أن شبّه شوبنهاور طاقة الحياة بزيت القنديل، كلما

اشتعل القنديل أكثر استنزف زيته بسرعة، والمطلوب من الإنسان العاقل هو أن يحسن تدبير طاقته الحيوية، بحيث لا يستنزف زيته قبل الأوان.

معظم الناس يهملون سؤال المعنى ويلجأون إلى مختلف المسكّنات والمنوّمات والملهيات. يُغرقون مللهم وأحزانهم وبؤسهم في كل ما يلهيهم عن التفكير في العبور من البؤس والجهل إلى الفرح والمعرفة. هذا العبور الذي يغذّيه فهمنا للحياة وليس مراكمة الأشياء ولا القمار أو الغرق في الشراب أو مشاهدة المباريات... مع أن لها وقتها الممتع، فالفلسفة ليست ضد اللهو الذي يمنح المتعة.

ومن يواصل مواجهة السؤال حتى أثناء الاستمتاع باللعب والتسلية والحب، حتى أثناء العمل والتعلم والإنتاج، سيكون بإمكانه أن يستأنس بالسؤال، ويتأنسن به، لكي يرتقي في سلم الحياة الذكية نحو ما يُعرف اليوم بالحياة الفلسفية، سواء درس الفلسفة أم لم يدرسها. فليست العبرة بكثرة الدراسة لكن العبرة ببناء الذات.

ما معنى الحياة الفلسفية؟

يتعلّق الأمر بمفهوم أساسي من المفاهيم الراهنة، يستعمله كثيرون من فلاسفة اليوم، ويقصدون به إجمالًا، حكمة العيش في سياق سيرورة متّجهة نحو العقلنة والعلمنة، حيث يُفترض أن تكون الحياة الشخصية حياة عرَضية عابرة، لكن علينا أن نعيشها

بنحو يناسب طاقة الحياة الكونية، ومن دون حاجة إلى أي خلطة من الأوهام.

لماذا نعيش الحياة؟

لا تكمن أهمية السؤال، في توقّع العثور على إجابة كافية شافية هنا أو هناك، بل تكمن أهميته في أنه يمثّل فرصة لتأسيس حياة جديرة بالحياة الذكية، تسمى الحياة الفلسفية.

بماذا تتميز هذه الحياة الفلسفية الموعودة؟

إنها نوع من الخلاص عن طريق تبنّي، والعمل بـ القِيَم التي تتيح للحياة التي نعيشها أن تنمو وتسمو وتستمد طاقتها من التفكير الحر المتخلّص من أوهام الخلاص التي تجعل العيش خاضعًا لمستقبلٍ موهوم يجعل من الحاضر مجرّد مرور فلا نعيشه.

ما النماذج المقصودة للعيش؟

هل المقصود أن نعيش تسكع الكلبيين؟ أم متعة الأبيقوريين؟ أم صبر الرواقيين؟ أم شهامة كانط؟ أم حيوية نيتشه؟ أم ماذا بالضبط؟ فالخيارات واسعة شاسعة، وقد يقول قائل منا: «إن البقر تشابه علينا».

الحياة الفلسفية ليست الحياة التي عاشها الفلاسفة كما عاشوها بالتمام، بل حياة كل واحد منا بعد أن يُخضع كل أفعاله، وردود أفعاله، للعقل النقدي، قبل وأثناء وبعد الفعل، أو أثناء رد الفعل.

خلاصة ما يقوله فلاسفة اليوم إن الحياة الفلسفية تقوم على التفكير في حياتك حين تعيش، وأن تعيش ما يهدف إلى الإعلاء من شأن وقيمة الحياة.

ليست الحياة الفلسفية حياة التفرّغ لدراسة الفلسفة في إحدى الجامعات أو المعاهد المتخصّصة، حتى وإن كان الاطلاع على قدر من المعرفة الفلسفية أمرًا مرغوبًا فيه، إلا أن المطلوب في كل الأحوال هو الاشتغال على بناء الذات باستلهام كل ما يمكننا أن نتعلمه ونكتسبه من مدارس الفلسفة والحكمة، سواء القديمة أم الحديثة. فوق ذلك، فالمطلوب في كل الأحوال هو استلهام كل ما يمكننا أن نتعلّمه من الحياة.

الحياة أعظم معلم للحياة.

فن العيش أو الحياة أثرًا فنيًّا

أمضى النحات نحو ثلاث ساعات وهو ينحت مجسَّم أسد بالرمال على شاطئ الرمال الذهبية في المغرب. كان يرى مياه البحر وهي تزحف نحوه، وأمامه وقتٌ قليل قبل أن يتلاشى الأسد ويتحوّل إلى حبات رمل، رغم ذلك ظل يجري لمساته الأخيرة بتأنٍّ وهدوء، غير مكترث بهدير الموت الذي يدنو من الأسد الرملي.

كان النحّات الذي صرف وقتًا طويلًا وجهدا كبيرًا في بناء مجسَّم الأسد يعرف أن أمامه، وبالتالي أمام الناس المعجبين والمتحلّقين حوله، قليلًا من الوقت للاستمتاع قبل أن تتلاشى المنحوتة، ويتفرّق الجمع، رغم ذلك بقي يواصل عمله برصانة كعسكري تلقى أمرًا ولا يمكنه الانسحاب.

لا أحد يمتلك أو يستطيع أن يمتلك تلك المنحوتة، ولا حتى

هو. لا أحد يستطيع أن يحميها، ولا حتى هو. إنها مُلك البحر. رغم ذلك ظلّ يواصل لمساته، مثلما يواصل عازف موسيقي عظيم عزفه على ظهر سفينة تغرق.

ما يفعله له قيمة، لكن ليس له ثمن.

قيمة الأسد الرملي تساوي الكثير، لكن ثمنه لا يساوي أي شيء.

في واقع الحال فإن كل الأشياء التي ننظر إليها كقيمة ليس لها ثمن: الإنسان، الحياة، الكون، الحب، الحكمة، الحرية... إلخ.

لكن، أين تكمن قيمة المنحوتة إذا كان البحر سيدمّرها بعد لحظات؟

هنا يوجد تدقيق ضروري:

عندما يزحف البحر فإنه يمسح كل الآثار التي انحفرت في رمال الشاطئ، يمسح آثار الأقدام والأجسام. لكن، في حالة المجسَّم الرملي للأسد الذي يحدث هو شيء آخر: يبقى الأثر بعد أن يُمحى كل شيء.

الذي يبقى هو الأثر الفني.

بل...

لا يبقى سوى الأثر الفني بعد أن يُمحى كل أثر.

هنا بالذات تتجلّى وظيفة الفن.

كانت مياه البحر لا تزال تزحف بثبات مهيب.

لكن، كانت بهجة غامرة تملأ العيون المتحلّقة حول الأسد الرملي الذي يبدو كأنه أسد من أسود الأطلس، بل كان في واقع

الحال أكثر بهاء من أسود الطبيعة. وهل يكون الفنان فنانًا بالفعل إذا لم يتفوّق على الطبيعة؟!

مياه البحر تواصل زحفها في الأثناء.

فماذا عن التلاشي الوشيك؟

يرى الناس أمواج البحر تقترب من المجسَّم، فيعظم تركيزهم على اللحظة، ويرتفع منسوب البهجة التي تملأ نفوسهم وتغمر قلوبهم. وهكذا يقول لسان حالهم وهم ينظرون إلى جمال الفن:

كم هو رائع!

إنه رائع إلى درجة أنه لن يعمّر طويلًا، لكنّ الأثر الفني سيبقى بعده، وسيعمّر طويلًا.

حين يُسدل الستار، تشتعل الأضواء، ويغادر الناس قاعة السينما أو المسرح أو الأوبرا، لا يبقى سوى الأثر الفنّي المتمثل في تلك البهجة الروحية العميقة التي تعلق بالذاكرة لوقت طويل، وربما إلى آخر العمر. هذا الأثر الذي يبقى ينمّي طاقة الحياة وبالتشارك مع كل الذين كانوا في القاعة ينمّي العيش المشترك.

السلام الداخلي والسلام العام، ذلك هو الأثر المزدوج الذي تثيره كل بهجة عميقة في وجدان الإنسان.

إن الأثر الذي يبقى في النفوس، والحواس، والخيال، والذاكرة، هو الجزء الخالد من اللحظات التي عادة ما توصف بأنها خالدة.

قد نصغي إلى صاحبة الصوت الملائكي فيروز في كل أوقاتنا، بالصوت والصورة، وباستعمال مختلف التقنيات المتوفرة، لكن يكفي أن نحضر لنشاهدها ونستمع إليها في دار أوبرا مرّة واحدة

في العمر، حتى تصبح تلك اللحظة، بفعل الأثر الفني، لحظة خالدة، وتصبح تلك السهرة سهرة العمر.

على المنوال نفسه يمكن لحياة كل واحد منا أن تصبح أثرًا فنيًا يبقى في نفوس الآخرين، ويلهم الأهل والأصدقاء والعشيرة والأقربين.

إن العنصر الخالد في فلسفة سقراط ليس أقواله فقط، بل أسلوب حياته الذي يمثل القالب الفني لكل ما قاله، وهو القالب الذي لم يتكسّر حين واجه لحظة الإعدام، في الوقت الذي كان فيه تحطيم ذلك القالب هو الرهان.

إنه القالب الذي حافظ عليه أمام قلة من أصدقائه الحاضرين، وكانت شهادتهم تكفي.

ليس ضروريًا أن يكون المرء فيلسوفًا حتى تكون حياته مليئة بالبهجة والحكمة، ليس ضروريًا أن يكون المرء موسيقيًا حتى تكون حياته مليئة بالأنغام والألحان، ليس ضروريًا أن يكون رسامًا حتى تكون حياته مليئة بالألوان والأشكال، وهكذا دواليك.

بهذا النحو قد ينجح بعض الناس البسطاء في أن يجعلوا لحياتهم لمسات فنية ساحرة، فيبقى لهم أثر فني يؤثر في الأشياء والنفوس، ويلهم الناس.

من طبيعة الأثر أن يؤثر.

الحياة الفلسفية

هناك مفهوم «الحقّ في الفلسفة»، يناقشه الكثيرون، وقد كتب عنه جاك ديريدا في إحدى المناسبات، وهناك مفهوم «الحق في

الحياة»، يناقشه كثيرون أيضًا، ونحن سنناقش هنا موضوع الحق في «الحق في الحياة الفلسفية»؟

هل المطالبة بهذا الحق ممكنة ومشروعة؟

بالحساب المنطقي فإن الحق في الحياة الفلسفية هو الحق في الحياة زائد الحق في الفلسفة. هذه المعادلة ممكنة في مستوى التركيب المنطقي. فهل يتولد عن ذلك معنى جديد؟ من حيث المضمون يمكننا أن نفترض بأن الحق في الحياة الفلسفية مطلب يستحق البحث عن تأكيده والمطالبة به؟

نعم، هو كذلك. هو كذلك لأنه حق يشمل حقوقًا أساسية للإنسان، إنه الحق في حياة يعيشها المرء بأقل ما يمكن من الخوف، الحزن، الأسى، الندم، الغيرة، الغضب، الحقد، الحسد، وبالتالي أقل ما يمكن من الشقاء البشري. إنه الحق في التفكير الحرّ وفي العيش بحرية خارج كل الإيديولوجيات التي تُفرَض في مجتمعات كثيرة. إنه الحق في أن يفعل الإنسان ما يسعده ويكون محميًّا بقرارات وقوانين تحمي هذا الحق. إنه الحق في الخيارات الفردية وحتى الجماعية لفئات من الناس قد تتعارض مع السائد، ومع ما تفرضه الدول والسلطات بداعي حماية المجتمع، ولعلّ النقاش حول إجبارية التطعيم ضد كورونا نموذج... كل هذا وغيره كثير لا يمكن مناقشته خارج ما قدمته الفلسفة من نموذج، أو نماذج للعيش، هدفها إتاحة فرصة اختيار الإنسان لقناعاته وبالتالي نمط حياته.

قد يسمى ذلك العيش الحكيم، وهو القاعدة المشتركة مع الحياة الفلسفية. غير أن هذه الأخيرة تتميّز فوق ذلك كلّه، بأنها

حياة لها مشروع، لها معنى، لها حكاية، لها هامش من المجازفة والمخاطرة، ولها أيضًا لمساتها الفنية والتي يجب الحرص عليها حتى الرمق الأخير، مثلما فعل نحات الأسد الرملي الذي ذكرناه سابقا، إنها حياة يعيشها الإنسان بكثافة وتأمل، وجديرة بأن تُنسب إلى الحياة الذكية، وبأن تترك نوعًا من الأثر.

الحق في الحياة الفلسفية هو الحق في حياة تتيح للإنسان إمكانية تنمية قدراته، وضمنها قدرته على الحياة، لحظة بعد لحظة، يومًا بعد يوم، بثبات وتأنٍّ، وذلك من خلال تمارين روحية لا تبيع المسكّنات والأوهام، تمارين يخوضها الإنسان بالوجدان وفي قلب الميدان. فالتمارين الحقيقية للمقاتل لا تتحقّق إلا في غمرة القتال، كل ما عدا ذلك هو من باب الإعداد والاستعداد.

الحق في الحياة الفلسفية هو الحق في الشك في كل ما هو بديهي ومتعارَفٌ عليه، والحق في الاندهاش بكل ما هو اعتيادي ومألوف.

الحق في الحياة الفلسفية سيطرح فكرة الحق في وجود ورشات التفكير الفلسفي العملي والتطبيقي، في كل سنوات العمر، عبر مؤسسات التعليم ووسائل الإعلام، وفي مختلف مناحي الحياة، وحتى في الشارع متى أمكن ذلك.

الحق في الحياة الفلسفية هو الحق في حياة ما بعد الأصوليات الدينية بكل طوائفها، وما بعد الإيديولوجيات الشمولية بكل أطيافها، وما بعد النزعات العدمية في آخر المطاف.

الحق في الحياة الفلسفية هو الحق في الحياة كما هي، عارية تمامًا..

وعلى الأخصّ: عارية من كل الأوهام.

الفصل الحادي عشر

على سبيل الحياة

في مواجهة العنف الذي يمثل المعضلة الأولى للحضارة الإنسانية، يأمل فرويد أن ينتصر الإيروس (إله الحب والحياة) على الثاناتوس (إله الحرب والموت)، وذلك على اعتبار أن دافع الحياة يظل هو الأقوى كما يُفترض، فهو صانع الحياة بكل أنواعها وألوانها، وهو أساس المجتمعات، الحضارة، البناء، الفن، الحب، الإبداع، الموسيقى، والفلسفة أيضًا. إنه في مقام الألوهية بالفعل.

على المنوال نفسه يراهن إريك فروم على «فن الحب» لتقليص مظاهر العنف والحرب. ويعوِّل وليام رايخ على «الثورة الجنسية» لمحاصرة العنف والاستبداد والتطرّف. كما يرى كثيرون من فلاسفة اليوم في الحب وصفة ضدّ العدمية.

غير أن المعضلة أعقد من أن تُختزَل في شعارات من قبيل: «الحب هو الحل»، أو «لنواجه الحرب بالحب»، أو ما إلى ذلك من تراتيل تُغنّى للإله الجميل إيروس. الأمر أشد تعقيدًا، ولقد انتبه فرويد نفسه إلى العقدة الشائكة:

العقدة أن دوافع الحياة في الإنسان تجاورها دوافع الموت بنوع من العناد، وذلك بفعل حنين الإنسان إلى الحالة ما قبل العضوية، كما يفترض فرويد. معنى ذلك، بمزيد من الانتباه إلى مختلف أوجه الفرضية وممكناتها، فإن دوافع الثاناتوس لا تتعلّق بالمرحلة العضوية، ولا تتعلّق بمجال الحياة الذي استطاعت أن تقتحمه

عنوة، بل تتعلّق بحالة سابقة على الحياة، هي الحالة اللاعضوية التي كانت سائدة قبل الحياة. سبق أن عبّرنا عن ذلك الأمر بالقول، إننا نولد بقوانين الحياة ونموت بقوانين الفيزياء والكيمياء.

ما سبب وجود دوافع الموت لدى الإنسان؟ وكيف ينشأ ذلك الحنين الغريب إلى الحالة اللاعضوية ما لم تكن هناك ذاكرة سابقة عن الحياة؟ هل هي نوع من الذاكرة الكمومية؟ لا نعرف، إلى حدود الساعة لا نعرف. لكن الحياة لا تبرر ذلك الحنين بأي حال من الأحوال.

بيد أننا نعرف أمرًا بالغ الأهمية، وقد يكون منطلقًا لفهم أفضل، ذلك أن دوافع الموت تتماشى مع قوانين الفيزياء التي تسري في كل مكان من الكون، وتقود الأشياء كلها إلى التلاشي.

ربما هنا يستمد الثاناتوس قوّته، وربما لأنه غريب عن الحياة، فهو يتعامل معها بكثير من المكر والاحتيال، بحيث يمتلك القدرة على التلبيس والتنكّر، مثل الشياطين التي سقطت من السماء سقوطًا مدويًّا لكنها تستطيع أن تزعج حسابات الإرادة الإلهية.

لذلك، كثيرًا ما رأينا الثاناتوس يتسلّل إلى داخل مربع الحب نفسه، بل رأيناه أحيانا ينجح في التسلل إلى منصة تتويج الحب في لحظات انتصاره.

إن مشاهد القتل بدافع الغيرة، وافتضاض البكارة، وآثار العض والخدش واللطم في اللحظات الحميمية، كل ذلك يعكس قدرة الثاناتوس على التسلل إلى مساحة الإيروس. فيا له من شيطان ماكر!

صحيح أن الكبت الجنسي والحرمان العاطفي يفرزان أسوأ

الأمراض الاجتماعية، غير أن الإشباع الجنسي لا يكفي للشفاء من أمراض النوع البشري، فالعراة البدائيون أنفسهم قد تقاتلوا بشراسة. كما أن طقوس قبائل آكلي لحم البشر توحي بوجود دافع جنسي كامن، هو الدافع نفسه الذي يظهر بين الفينة والأخرى لدى بعض المرضى الخطرين. بل بوسعنا أن نفترض بأن معظم الجرائم التي يتم اقترافها بدم بارد، تحمل ملامح انحراف جنسي سادي كامن في اللاوعي الجمعي.

مصطلح السادية مستلهم من اسم الروائي الفرنسي ماركيز دي ساد، والذي اعترف بنفسه بأنه لم يكن يمارس كل فظاعاته الروائية في حياته، ولدينا كل الأسباب لكي نصدقه، فخيالاته الأدبية أفظع من أن تعاش، غير أنها تكشف في المقابل عن الحقيقة المحبطة للرومانسيين، وهي قدرة دوافع الموت والدمار، دوافع الثاناتوس، على اختراق اللحظات الإيروتيكية الأكثر حميمية بنحو قد يُحوّل الممارسة الجنسية أحيانًا إلى لعبة خطرة قد تؤثر على الصحة الجسدية والنفسية.

على أن إمكانية التلذذ الشبقي تبقى كامنة في معظم مظاهر العنف، أكان عنفًا نحو الآخر أم نحو الذات، وهو ما يفسّر تفوّه الجلّادين والمعربدين بعبارات جنسية، كما يفسر ظواهر السبي والاغتصاب في حروب العالم القديم.

الحرب شرّ كبير، حتى وإن كان لا بد منه أحيانًا. غير أن ذلك الشر الذي أهلك مدنًا وحضارات قد أنتج في المقابل روائع الأدب العالمي، من حروب طروادة وملحمتي «الإلياذة» و«الأوديسة»،

إلى الحروب الوطنية الروسية ورائعة تولستوي «الحرب والسلام»، ثم الحرب الأهلية الإسبانية التي أنتجت الروائع الشعرية لغارسيا لوركا، إلى الكفاح الفلسطيني الذي أنتج روائع محمود درويش، وغسان كنفاني، وغيرهما... إلخ. المحصّلة أن روائع الأدب الإنساني هي أعظم غنائم الحروب، لماذا؟ لأنها تنسج الحلم البشري بأن يكون الأيروس هو من يتسلل إلى مساحة الثاناتوس، ولو في اللحظات الأخيرة، وتكون له بالتالي الكلمة الأخيرة.

روائع الأدب العالمي هي غنائم الحروب التي بوسعها أن تخدم طاقة الحياة.

ستكون اللحظة الأدبية في الحرب هي اللحظة التي يُودِّع فيها الجندي حبيبته، ثم يعِدها بأن يعود، فتصير الحرب اختبارًا شرسًا لوعد العودة.

العودة من أين، وإلى أين؟

العودة من الوغى والقتال إلى المسكن والسلام، من «دار الحرب» إلى «دار الحب».

في الإلياذة والأوديسة، لحظة تأسيس الأدب الملحمي العالمي، يخرج البطل أوديسيوس (أوليس) من حرب طروادة التي أبلى فيها بلاء الأبطال، ناجيًا منتصرًا، لكن ملحمته لن تكتمل إلّا بعودته إلى زوجته ووطنه. في سبيل العودة واجه أهوال غضب إله البحر، وغواية الحورية التي احتجزته في الجزيرة وأغرته بالحياة الخالدة على أن يمكث معها، لكنه انقاد في النهاية إلى ما يقوله القدر الأخير:

على الإنسان أن يعود إلى حيث يوجد من ينتظره.

من ينتظره؟

وإلى ماذا يرمز الانتظار؟

رحلة العودة هي رحلة الذات من أرض الحرب إلى أرض السلام، لكنها رحلة داخل الذات أيضًا من غرائز الحرب والموت إلى غرائز الحب والحياة؛ من دوافع الحرب التي تؤدّي إلى تناقص الناس إلى دوافع الحب التي تؤدّي إلى تكاثرهم، من قانون الحرب الذي هو «أصل الجميع» بحسب هيراقليطس، إلى قانون الحب الذي هو «خلاص الجميع» بحسب لوك فيري.

رحلة طويلة نحو السلام، ونحو السلام الداخلي ابتداء.

رحلة طويلة نحو الحكمة، ونحو محبّة الحكمة ابتداء.

رحلة الإنسان.

رحلة كل إنسان.

لماذا يحكي السندباد؟

بعد أن أكمل السندباد البحري رحلاته السبع، باعتبار الرقم سبعة يندرج ضمن الأعداد التامة في الميثولوجيا القديمة، تكون رحلة عمره قد اكتملت، وعاش الحياة التي أرادها كما أرادها، عاشها إلى أقصى الحدود وعلى تخوم الموت، بمعنى أنه عاش بالفعل، إلا أن هناك ما ينقص الحكاية، وهو أن تُحكى.

هناك ثلاثة اعتبارات، أو أربعة، من شأنها أن تبرر حاجة السندباد البحري إلى أن يحكي حكاياته السبع:

الاعتبار الأول، حياة فائقة يجب ألّا تُنسى، بل يجب أن تحكى حتى تمنح للناس شجاعة العيش، وتنمّي خيالهم، وتهذّب نفوسهم، وتساهم بالتالي في نمو الحياة.

الاعتبار الثاني، حياة الشخص تُعمّر لسنوات معدودة، لكن الحكاية عن الشخص تُعمر لآلاف السنين، وتمثل بذلك خلاصًا أدبيًا للذوات الفانية.

الاعتبار الثالث، يكافح الإنسان من أجل غايتين أساسيتين، البقاء والمجد: فهو يكافح من أجل البقاء على قيد الحياة، أي من أجل الخبز والماء والأرض، وضدّ كل أنواع الوحوش والفايروسات والكوارث؛ ويكافح من أجل المجد، أي من أجل السلطة، البطولة، الجوائز، الشهرة، وضد كل أشكال التهميش والإقصاء. على أن المجد لا يتم إلا إذا صار حكاية تروى.

لتلك الاعتبارات الثلاثة يحبّ الناس الحكايات، فماذا عن الاعتبار الرابع؟

في واقع الحال يبقى الإنسان مستقرًا حيثما يضمن لنفسه البقاء، غير أنه سرعان ما يدرك أن بقاءه مؤقت في كل الأحوال، وهو ما قد يدفعه إلى الخروج من منطقة البقاء الآمن بحثًا عن مجد يُحكى من بعده. ذلك هو الرهان الذي أنتج أدب الملاحم، وأدب الرحلة، والكشوفات الجغرافية، وصولًا إلى عتبة الغزو الاستيطاني للفضاء الخارجي اليوم.

لقد غادر السندباد البحري برّ الأمان، وركب أهوال البحر، وشيّد مجدًا لا يضاهى، لكنه كأي مجد آخر يحتاج إلى أن يصبح

حكاية. ذلك هو المجد الذي يبحث عنه كثيرون من ساسة وزعماء العالم، حين يكتبون سيَرهم الذاتية في آخر العمر، أو يستأجرون من يكتبها عنهم، عسى بلاغة الحكاية تعوّض عوز الحياة. وهذا أيضًا رهان.

سيحكي السندباد البحري عن رحلاته السبع، لمدة سبع ليال. لكن لمن سيحكي؟ سيكون السندباد البرّي هو الشخص المناسب؛ فهو نظير السندباد البحري، وهو بلا مغامرات بلا رحلات بلا حياة، طالما بقي مستقرًّا في منطقة البَرّ الآمن، ولذلك السبب ظل فقيرًا، فما عليه إلا أن يرضى بالصفقة، حيث سيصغي إلى حكايات السندباد البحري مقابل أن يكرمه ببعض المال والطعام. هنا نرى الراوي هو الذي يدفع المال إلى المنصت، وليس العكس، طالما حاجة الراوي إلى الحكي تضاهي حاجة المنصت إلى المال. لعلها صفقة منصفة بالفعل!

ظل السندباد البحري يحكي ليلة بعد ليلة، إلى مائدة السهر الباذخ، إلى غاية انقضاء الحكاية السابعة، في متم الليلة السابعة، حيث «أدركهما هادم اللذات ومفرق الجماعات»، كما ورد في نهاية حكاية تعدّ من أجمل حكايات شهرزاد.

كانت شهرزاد في الحكاية الإطار تحكي لكي تؤجّل موتها. وبينما الناس يتداولون حكاياتها، فقد عاشوا حيوات كثيرة في حياة واحدة، طالما حياة واحدة لا تكفي.

الحكايات الخارقة، ليس دورها أن تعاش، بل أن تطلق العنان للخيال والاستعداد لعيش حيوات فائقة إلى أبعد الحدود الممكنة.

ولأنها خارقة، تتجاوز زمانها ومكانها، وتتحوّل إلى إرث إنسانيّ مستمر، يُعاد تأويله لينتج المزيد من الحكايات والخيالات المبدعة التي تتحدّث عن حيوات جديدة تملأ نفوسنا بالدهشة والجمال. بهذا النحو تساهم الحكاية في تطوير الحياة، وفق ما تطلبه الحياة. وهذا هو الاعتبار الرابع.

حياة واحدة لا تكفي، لذلك نستعين بالحكايات.

فكرة الموت من أجل فكرة

يعتقد بعض المثقفين الغربيين أن مشكلة الغرب الأساسية تكمن في أنه لم يعد يمتلك أي فكرة يمكنها أن تقنع الناس بأن يموتوا من أجلها، وهذا إما بسبب هيمنة النسبية الثقافية، أو ثقافة الأنانية، أو انسحاب المسيحية، أو غياب الإيديولوجيات الكبرى، أو نحو ذلك من الدواعي والادعاءات الكثيرة والمتناثرة، وذلك على خلاف الإرهابيين مثلًا، الذين لديهم فكرة يموتون من أجلها. قد تكون الفكرة خاطئة، فاسدة، أو شريرة، لكن الموت من أجلها يمنحها القوة في النهاية. هنا تكمن نقطة قوة الإرهابيين، مقابل نقطة ضعف الغرب، والتي قد تقضي عليه عاجلًا أم آجلًا!

ربط قوة الفكرة بالقدرة على الموت من أجلها، معادلة دراماتيكية ذات نفس هيجلي لا يُخفى، وهي الفكرة التي يشهرها الكثيرون في محاولة نقد الحالة الغربية اليوم، بعضهم فلاسفة وبعضهم إعلاميين، وبعضهم الآخر مجرد نُذُر شؤم لإثارة الأضواء أو الضوضاء. ومع أن النقد الذاتي ضروري وملازم للحضارة

المعاصرة، منذ روسو، كانط، ماركس، نيتشه، وآخرين كثيرين اليوم، إلا أن المعادلة تتضمّن أربع ثغرات يصعب التساهل معها:

أولًا، الواقع أن الإرهابيين الذين قد يفجرون أنفسهم في أي مكان من العالم اليوم، سواء في المحطات أو المقاهي أو الطرقات، لا يموتون من أجل أي فكرة، لا يموتون من أجل أي أرض، لا يموتون من أجل أي قضية أو استراتيجية عسكرية، ولا حتى من أجل أي قيمة، إنهم فقط يموتون! يموتون من أجل الموت. وهم القائلون في شعارهم الأساسي: «الموت أغلى أمانينا»! غير أن من يموت لأنه لا يفكّر فهو لا يموت من أجل أي فكرة.

ثانيًا، شقّت اليابان طريق التطوّر فقط في اللحظة التي قرّر فيها الكاميكاز التوقف عن الموت المجاني، بإيعاز من حكمة الإمبراطور، وبذلك تحوّل معلمو الساموراي إلى قادة للإدارة والأعمال، فصار لليابان شأن عظيم. ليس الموت من أجل فكرة، بل التخلّي عن فكرة الموت، ذلك هو ما سمح لليابان باللحاق بركب الحضارة الحديثة.

ثالثًا، الحياة نفسها غيّرت تكتيكها في الحقبة المعاصرة، فلم يعد الموت في سبيل أي فكرة يمثل مقياس قوتها. ربما كان ذلك المقياس مناسبًا في زمن السيوف والرماح، حيث كانت المشروعية تقوم على الغلبة والقدرة على تجييش أكبر عدد ممكن من الناس، سواء في الصراعات الداخلية أم في الصراعات الخارجية، لكننا اليوم في زمن أسلحة الدمار الشامل حيث تدرك الحياة أن اللعبة صارت خطرة، وغير مثمرة، وأن الاستعداد للموت قد لا يعني

سوى موت مجاني ودمار شامل. هذا هو واقع حال الإرهاب الانتحاري.

رابعًا، سقراط أب الفلسفة، والذي يقدّمه البعض بوصفه شهيد الفكرة، وأنه بموته منح القوة لفكرة العقل، ومبدأ مساءلة المسلّمات. لم تكن المعادلة الحقيقية التي حاول تحقيقها تتمثّل في كونه مات من أجل فكرة، بل في كونه لم يهرب من فكرة الموت. والفرق واضح.

لو أن سقراط هرب من زنزانة الإعدام وفق خطة أصدقائه الذين وفروا له الفرصة، فلعله كان سينجو من الموت، ولو إلى حين، لكنه سيوصف وقتها بالهارب من القانون، وسيعيش بالتالي حياة بلا معنى، بل سيوجّه ضربة قاتلة للفلسفة حين كانت لا تزال في مهدها.

الفيلسوف لا يسعى إلى الموت، لكنه لا يهرب منه حين يأتي. تلك هي المعادلة.

إن اللحظة التي قبل فيها سقراط أن يشرب السم بنفسه تطبيقًا لحكم الإعدام، من دون أن يستدعي الأمر أن يجرجره أحد إلى غرفة الموت كما يحدث مع ضعاف النفوس، هي لحظة المجد التي حفظت لسقراط لقب أب الفلسفة، ذلك اللقب الذي بناه في محاوراته، استحقّه في مرافعاته، ثم وقّع عليه من خلال طريقة موته، إلى الأبد.

ما القول عن فكرة الموت في الحضارة المعاصرة؟

كانت الحرب العالمية الثانية مدمرة بما يكفي لكي تجعلنا ندرك

أن الحرب العالمية الثالثة قد تكون هي النهاية. انطلاقًا من ذلك، واعتبارًا لوعي إرادة الحياة بالوضع الدراماتيكي للقوة التدميرية التي امتلكها الإنسان، انبثق ميثاق الأمم المتحدة، والإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وعديد من المواثيق الدولية التي أساسها الحق في الحياة.

هنا بدأت تتبلور إمكانات أخرى من الذكاء البشري، تحترم معايير الحياة، ويقودها الذكاء الحكيم، أو هذا هو الرهان المأمول، رهان الحياة.

الإجهاض من وجهة نظر الحق في الحياة

هذا ما تقوله المادة الأولى من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان:

«يولد جميع الناس أحرارًا ومتساوين في الكرامة والحقوق. وهم قد وُهبوا العقل والوجدان وعليهم أن يعاملوا بعضهم بعضًا بروح الإخاء».

ما يعني أن جميع الحقوق بلا استثناء تقوم على أساس الولادة، يجب أن يولد الإنسان أولًا قبل أن يتمتّع بالحقوق الكاملة، وبالطبع يجب أن يولد حيًّا.

كانت تلك من بين الذرائع الأساسية للأشخاص الذين لم يروا في الحق بالإجهاض أي خرق للحق في الحياة، طالما أن الحقوق تبدأ مع الولادة، وليس قبلها.

رغم ذلك فالحق في الإجهاض كما يمارس في إطار معظم

القوانين المعاصرة يقوم، في ما يبدو كأنه مفارقة، على أساس توسيع مجال الحق في الحياة إلى أبعد مما ذهب إليه الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، بحيث لا يبدأ الحق في الحياة مع الولادة، إنما قبلها، أي بعد انقضاء ثلاثة أشهر عن بداية الحمل. ما يعني أن الإنسان يتمتع بالحق في الحياة قبل أن يولد بزمن يُقدّر بستة أشهر.

إنه الوقت الكافي للانتقاء، والذي لا تزال الطبيعة تطالبنا به في حال وجود تشوّهات بالغة الضرر أو الخطورة، أو في حال العجز عن توفير الحد الأدنى من الرعاية المطلوبة، ولذلك فإننا نتقبّله بضمير أخلاقي صامت ومرتاح، رغم ثرثرة البعض خارج السياق اليومي الفعلي لحياة الناس.

بين خيار حياة الأم أو حياة جنين لا يزال في الرحم، فإن كل شرائع الأرض والسماء تجمع على أن حياة الأم أوّلًا، حتى ولو كان الجنين في شهره التاسع. لكن بين إنقاذ حياة الأم أو إنقاذ حياة مولود يغرقان في النهر، فإن كل شرائع الأرض والسماء تجمع على أن حياة المولود أولًا، حتى ولو كان في يومه الأول. ما الفرق؟ الفرق بكل بداهة هو فعل الولادة.

رغم ذلك فإن الحق في الإجهاض قدّم تنازلًا معقولًا للحق في الحياة.

إن التوسيع القانوني للحق في الحياة إلى ما قبل الولادة بشهور عديدة، هو الذي جعل الكثيرين يرحّبون بالحق في الإجهاض بمعزل عن مبدأ حرية المرأة في الاختيار.

قرّرت بعض الدول إنشاء وزارة جديدة تسمى وزارة السعادة. هذا معلوم للرأي العام حتى وإن كان الأمر لا يثير النقاش الذي ينبغي، كما ينبغي. يتعلّق الأمر بمبادرة غير تقليدية، تفتح أفقًا جديدًا في النقاش الدائر حول أهداف التنمية، وغاية التاريخ البشري، أو هذا ما يُنتظر. إلا أن النقاش حول سياسة السعادة لا يزال منعدمًا أو شبه منعدم في معظم دول العالم، جراء الاعتقاد الشائع بأن السعادة ليست من أهداف السياسة. ولذلك يبقى الأمر متروكًا للفلاسفة حينًا وللفنانين أحيانًا، وللدجّالين أحيانًا أخرى. غير أن واقع الحال يشهد أن حُمّى البحث عن السعادة هي في أوجّها اليوم.

أما في المستوى النظري، فبكل مقاييس العقل والمصلحة، تمثل السعادة أفقًا متجددًا للتفكير الفلسفي، أي للعقل النقدي والأخلاقي الإنساني. غير أن هذا التفكير لا يزال عملة نادرة، بل مطرودة في كثير من الأحيان في مجتمعاتنا.

هنا أيضا ينطبق قانون كريشام الشهير: العملة الفاسدة تطرد العملة الجيدة.

السعادة هي غاية الأخلاق بحسب أرسطو وسبينوزا، غاية السياسة بحسب أفلاطون والفارابي، وغاية الحكمة بحسب الرواقيين والأبيقوريين. السعادة غاية الغايات لدى جميع الناس، وخاصة لدى جميع الأذكياء الأسوياء على وجه التحديد.

غير أن إنشاء إدارة للسعادة، من الأمور التي تحتاج إلى نظرية

وتنظير، وإلى إدخال هذا الموضوع المهم في النقاش العمومي، نقاش يشارك فيه أهل النظر والمسؤولون عن سياسة السعادة. وهكذا نقاش هو نقاش فلسفي بامتياز قبل أن يكون عملًا إداريًا، والتأصيل الفلسفي هنا ليس من باب الشغف الزائد على الحاجة، فمن دون رؤية فلسفية تحاكي العقل وتلهم الوجدان، لن يكون لإدارة الأعمال أي معنى معقول. فالسعادة ليست طعامًا لذيذًا نأكله، ولا حاجات نحتاجها ونحصل عليها، لكن مصدرها ومستقرّها العقل والعقل يطلب المعنى حتى لا يفتر عزمه وتخرّ عزيمته.

يمسك الإنسان الأشياء بالعقل قبل اليدين.

لذلك يجب أن يكون الأمر مفهومًا بالمعنيين، بحيث يفهمه الناس بالحسّ المشترك، ويتصوّره العقل النظري بالحسّ السليم. هنا يتحدّد مفهوم المفهوم.

سبق أن تلقيتُ سؤالًا مكتوبًا من رجل أعمال عربي، يقول فيه بلسان مبين ما معناه:

أريد أن أكون سعيدًا، أريد أن أعيش معنى السعادة. وقد جرّبت كل الوصفات، جرّبت التديّن السلفي وصولًا إلى الالتزام الصارم، جرّبت تناول المخدرات القوية إلى حدود الإفراط في تناولها، جرّبت اليوغا الهندية والصينية، طرقت باب الزوايا الطرقية المغربية والطرق الصوفية، لقد بحثت وجرّبت حتى تعبت، لكن بلا جدوى. قرأت بعض الأشياء عن فلاسفة عاشوا السعادة، لكن وجدت كثيرًا مما قالوه صعبًا عليّ. أشعر بأن أمامي الآن أمل أخير، أن أحظى بخلاصة لكل ما قاله الفلاسفة، في درس واحد،

أو في تمارين محدودة. خلاصة أفهمها، أستوعبها، وأجرّبها، عساها تساعدني لكي أقلّص ولو جزئيًا من حجم الشقاء الذي كلما بحثت عن دواء له زاد احتراقي. أشعر بأنني أحترق، إذا لم أغير ما بنفسي سأصير مجرّد كومة من الرماد.

هكذا كان جوابي على ما طلبه مني:

الرهان هو ما قلته أنت بالذات يا سيدي، أن تغيّر ما بنفسك. لعله رهان صعب، لكنه يستحق أن تجازف من أجله. إن نجحت في المحاولة فستكسب نفسك وستعرف معنى السعادة التي ترجوها، وتعيشها، وإذا فشلت فهي محاولةٌ لا خسارة فيها. وبدوري سأجازف بمحاولة تقديم خلاصة لآراء معظم الفلاسفة، إن نجحتُ فهي غنيمة لي وفرصة لك، وإن فشلت فهي محاولة لا تخلو من فائدة.

وهكذا بوسعي أن أقول لك يا سيدي:

يمكن للفلاسفة أن يساعدوك للتقليص من شقائك مثلما ساعدوني للتقليص من شقائي. فأنا لم أكن سعيدًا كما يقول اسمي، لم أكن اسمًا على مسمّى، لكني عملت لأجل سعادتي، وبنيتها لبنة لبنة، لعلها الآن أقل من سعادة البلهاء والحشّاشين، لكنها سعادة حقيقية.

رهان الفلسفة وغايتها

تُراهن الفلسفة على تحرير الإنسان من الخوف من الأشباح التي تسكن الذات الإنسانية، والتي تتناقلها الذاكرة الوراثية منذ

آلاف السنين، منذ عصر الكهوف والوحوش والأفاعي السامة، مضافًا إليها الرغبات الخطرة التي تقبع في اللاوعي الجمعي والتي تراكمت في سياق أزمنة طويلة من جزّ الرؤوس، واغتصاب النساء، وبيع البشر، وكذلك الذكريات المؤلمة القادمة من تجارب الذات.

إن المعنى الحقيقي لمقولة «اعرف نفسك بنفسك» أن يعرف المرء أشباحه بنفسه، فلا يهرب منها، بل يحاول ترويضها رويدًا رويدًا.

إذا كانت الفلسفة حوارًا، وذلك منذ محاورات أفلاطون، فإن الحوار الأهم هو الحوار مع الذات.

غاية الفلسفة أن يتحكّم الإنسان في ذاته بدل أن تتحكّم فيه، بمعنى أن يكون سيد نفسه.

أن يكون الإنسان سيد نفسه، عبارة تقول كل شيء عن تاريخ الإنسان العاقل، وعن الفلسفة، والحضارة.

في المقابل يراهن العلم على تحرير الإنسان من الخوف من الطبيعة، فيجعله يتحكّم في الطبيعة بدل أن تتحكّم فيه، بمعنى أن يكون سيد الطبيعة.

أن يكون الإنسان سيد الطبيعة، عبارة تقول كل شيء عن تاريخ الإنسان الصانع، وعن العلم، والحضارة.

الرهان متكامل، فلا هذا بلا ذاك.

فكيف يمكن للفلاسفة أن يساعدوك على وجه التحديد؟

إليك الشطر العملي من الدرس:

لعلك تشعر بقدر من الشقاء كما تقول، ولعلك تدرك بالخبرة والعبرة أن انتظار جمهورية أفلاطون، أو مدينة الفارابي، أو

كومونة ماركس، أو العصر الذهبي، أو الجنة، معناه أن حياتك ستكون مجرد قاعة للانتظار، وبالتالي ستعيش شقاءً مضاعفًا في انتظار الذي يأتي ولا يأتي، علمًا بأن لا شيء يأتي وفق التوقّعات على الإطلاق. لذلك كل الثورات مغدورة بهذا القدر أو ذاك، كل الوعود كاذبة بهذا القدر أو ذاك. لذلك أيضًا ليس فقدان الأمل هو الذي يقود إلى اليأس، بل الأمل.

مصادر الشقاء البشري تنبع من داخل الذات لا من خارجها كما يظن الكثيرون. بل حتى حين يبدو المصدر نابعًا من واقعة خارجية بالفعل، فالواقع أن القدر الأكبر للشقاء ينبع من تأويلنا للوقائع أكثر من الوقائع نفسها.

تغيير الحياة يبدأ من تغيير النظرة إلى الحياة. في هذا الباب يمنحك الفلاسفة دروسًا لا تُنسى في فن الحياة.

إذا كنتَ تتكاسل عن قراءة الكتب التي تحيل عناوينها إلى الفلسفة، وهذا ما لا أتمناه، فإليك القاعدة العامة التي بإمكانك العمل عليها كتمرين يومي ودائم أينما كنت، في البيت، في العمل، أو في الشارع.

تمرّن على أن تتصرّف على النحو التالي:

ضع مسافة وجدانية مع الأشياء والحوادث كلها من دون استثناء. لا تتعلّق بأي شيء، ولا تأمل في أي شيء. استمتع بلحظتك الراهنة هنا الآن. الماضي الذي يبعث فيك إما الأسى أو الحنين لم يعد موجودًا، فهو مجرّد فكرة في الذهن، والمستقبل الذي يبعث فيك الهواجس أو المخاوف لا يوجد بعد، فهو أيضًا مجرّد فكرة

في الذهن، وكل ما في ذهنك يمكنك أن تعيد صوغه في ذهنك. لا تبحث عن السعادة في أي مكان، لأنك لن تلقاها سوى في أعماق ذاتك حين تؤنّث ذاتك بنحو مناسب، وبنحو لا يخلو من لمسات فنية. فكما أن اللمسات الفنية في التأثيث المنزلي عامل أساسي في سعادة ساكني البيت، فإن اللمسات الفنية في تأثيث الذات عامل أساسي في سعادة ساكن الذات. لا تنس التغذية الصحية والمشي اليومي والابتعاد عن العلاقات السامة. لا تنشغل إلا بما تستطيع أن تتحكم فيه، في حدود ما تتحكم فيه، ودع مشكلات الحياة للحياة فهي أدرى بحلّها. وليكن دورك حينها أن تساعدها بواسطة المعرفة والحكمة، أو تتركها تتصرّف بنفسها وبسلام.

ازرع حديقتك!

ثم ماذا بعد؟

ماذا لو اشتدّ بؤس العالم من حولنا بنحو لا يُطاق؟ ماذا لو تداعت جدران الحضارة للانهيار؟ ماذا لو عمّ الخراب اليباب؟ فماذا نحن فاعلون؟ وما الذي بوسعنا أن نفعله أصلًا في ظروف الجحيم؟

إذا اشتد بؤس العالم من حولنا فلا يمكننا أن نفعل الكثير، هذا صحيح، وأحيانًا لا يمكننا أن نفعل أيّ شيء، وهذه قد تكون هي خيبة الإنسان في كثير من بقاع العالم، لكنها الخيبة التي قد تحرّره في المقابل من مشاعر الانتظار، والسخط، والتذمر، والأمل، والحقد، والأسى، وكل المشاعر السلبية التي هي المنبع الأساسي للشقاء البشري.

لا يمكن أن نواجه المشاعر السلبيه إلّا بالمشاعر الإيجابية. عندما نسترجع المشاعر الإيجابية، مهما بلغ بؤس العالم من حولنا، فإننا نسترجع القدرة على فهم الأمور مهما صعبت، والقدرة على عيش الحياة مهما عسُرت، فلا يصيبنا بؤس العالم بعدها ببؤس الروح أيضًا، وسنكون بالتالي قانعين بما يمكننا فعله في حدود ممكناتنا وحدود الممكن. حتى ولو كنا سنضطر إلى العيش تحت القصف وفوق الألغام.

هنا يكمن مغزى خاتمة رواية كانديد لفولتير، ليزرع كل واحد منا حديقته!

حديقة كل واحد منا هي مجاله الذي يستطيع أن يزرع فيه شيئًا يستطيع أن يحيا، أو ينفع الحياة، حتى ولو كان فكرة تشجع الناس على الحياة، حتى ولو كان شيئًا لا مرئيًا مثل البذور الصغيرة، فكل البذور تكون لا مرئية في بادئ الأمر.

بل، للحياة بذور لا مرئية.

إلى أي مدى من الدرك تصمد هذه الفكرة؟

أحيانا قد لا تحيل الحديقة في الدرك الأسفل من الجحيم سوى إلى الجملة الجميلة التي تقول: «اعتنِ بنفسك!».

«اعتنِ بنفسك»، هي تحيّة كل الأيام حين تكون الحياة مقبلة، لكنها خط الرجعة الأخير حين تخسر الحياة الكثير، أو تخسر كل شيء.

حقوق الخاسرين!

هل سبق لأحد أن طالب بحقوق الخاسرين، بل هل سبق لأحد أن دافع عن حقوق الخاسرين؟ لا أذكر ذلك ولا أنكره، لكن أيًا يكن

الأمر فلا يهمني السبق طالما يتعلق الأمر بالخاسرين. من حسن الحظ أن الخاسرين لا يسبقون ولا يسابقون في أي أمر من الأمور. أنا واحد منهم، بل معظم الناس من الخاسرين بكيفيات مختلفة.

من هم الخاسرون؟

هناك اتجاه عام لدى البشر يعتبر أن الخاسر ليس من لم يصل، بل خاسرٌ أيضًا كل مَنْ لم يصل من بين الأوائل، أو لم يصل في الوقت المناسب، حتى ولو وصل في كل الأحوال إلى حيث ينبغي له أن يصل.

اتجاه عام يعتبر أن ليس الخاسر من لم يمش، بل خاسر أيضًا من مشى ببطء، أو مشى راجلًا على قدميه وبإيقاعه، لا يلتفتون إلى أن المشي بإيقاع خاص يعكس شخصية الماشي، هذا صحيح سواء في طرقات الشوارع أم في طرقات الحياة، ولذلك، فقط لذلك، استطاع أن يمشي كما ينبغي.

يعتبر الناس أن من لم يكن سريع البديهة، يرد ويجيب بسرعة، هو قليل الذكاء، بينما علينا أن نتنبّه إلى أن ليس الخاسر من فكّر بهدوء فاستطاع أن يفكر بأصالة وعمق.

الخاسر هو من ينفّذ الأوامر ويُطلق الأحكام بسرعة يريد بها أن يسبق غيره، وليس الخاسر من أصرّ على أن يفهم الأوامر قبل التنفيذ، أن يستوعب المواقف قبل أن يُصدر الأحكام، وأن يستنفد الأسئلة قبل البحث عن الأجوبة، ولذلك -فقط لذلك- فقد فهم كل شيء في النهاية، أو استطاع أن يفهم الأهم.

ليس الخاسر من تمسّك بأسئلته الخاصة تاركًا الإجابة عن

الأسئلة المفروضة، وليس هو الذي امتثل لساعته الداخلية بدل أن يمتثل لأجراس الآخرين، وانتظارات الآخرين، وتوقّعات الآخرين.

لقد كان كبار العباقرة أنفسهم من الخاسرين.

لم يصل عباقرة البشرية إلى حيث وصلوا إلّا لأنهم شقّوا طرقهم بأنفسهم، وساروا كما يجب عليهم أن يسيروا، ببطء وتعثّر، لكنهم ساروا بإيقاعهم الخاص وبشغفهم الخالص:

داروين (صاحب نظرية التطور)، أديسون (مخترع المصباح الكهربائي)، أينشتاين (مكتشف النظرية النسبية)، مارك زوكربيرغ (مؤسس فايسبوك)، على سبيل المثال، لم يكونوا بمعايير المدرسة والمجتمع عباقرة، لم يكونوا يوحون بأنهم سيصيرون يومًا ما من العباقرة أو المتفوقين في أي مجال من المجالات التي تستدعي بعض الذكاء، بل كانوا أقرب إلى الفاشلين دراسيًّا، إن لم يكن بعضهم فاشلًا دراسيًّا بالفعل، غير أن للحياة معاييرها الخافتة والحاسمة، والتي لا تنتظر منا سوى أن نحسن الانصات إليها على الدوام.

الطرق المرسومة لا تقود إلى أي فكرة جديدة، إبداع جديد، اكتشاف جديد، أو اختراع جديد، عدا التكرار الذي يقتل النمو، ويهدد الحياة.

قدر العباقرة أن ينزاحوا عن الطرق المرسومة سلفًا. لذلك كان طبيعيًّا أن يعانوا في البداية من وصمة الفشل، وكل الفرق أنهم قرروا قبل فوات الأوان ألا يحملوا الوصمة على محمل الجد كما جرى للكثيرين.

المعيار الحقيقي للنجاح والتفوق والذي احتكم إليه الحكماء على مدى الأزمنة والعصور، وهم أدرى الناس بالحياة وفن الحياة، أن المرء يجب عليه أن يكون هو نفسه، وأن يظل هو نفسه، في كل الأحوال، وعليه أن يحتفظ بشغفه مهما طالت الطريق، حتى ولو كانت المعايير السائدة، بمعنى معايير السائدين، ستصنّفه ضمن الخاسرين.

بعد أن يخسر الخاسر كل شيء، يبقى له حقّ واحد وأخير، بيد أنه حق أساسي بالنسبة لمعايير الحياة، إنه الحق في أن يكون هو هو.

خسر ديوجين كل شيء، الأهل، المال، البيت، الجنسية، لكنه نجح في ألا يخسر ذاته، نجح في الأهم إذًا، استطاع أن يكون هو هو، سيد نفسه، إلى درجة أن الاسكندر الأكبر قال عنه قولته الشهيرة: لو لم أكن الاسكندر لوددت لو أكون ديوجين.

ذلك ما قاله الرجل الذي استطاع أن يحكم العالم عن الرجل الذي اكتفى بأن يحكم نفسه.

موقف يقول كل شيء، ويختصر كل الكلمات الممكنة.

كتب ميشيل دي مونتاين صاحب «المقالات»، عن صديقه إتيان دو لابويسيه صاحب «مقالة في العبودية الطوعية»، مبررًا صداقتهما التي وُصفت بأنها من أعظم الصداقات في تاريخ الفلسفة، فقال بعبارة مقتضبة وبليغة:

ذلك لأنه كان هو، ولأني كنت أنا.

الخلاصات العشر

لا يجدر بنا أن نسدل الستار عن العرض من دون أن نعرض النتائج الممكنة في شكل خلاصات يسهل حفظها في الذاكرة، وبالتالي يسهل استثمارها أثناء القراءة الثانية لهذا الكتاب. وصدقًا أقول، إذا اكتفى القارئ بقراءة واحدة فمعناه أني خسرت الرهان.

السؤال كما طرحناه منذ بداية الكتاب هو سؤال: لماذا نعيش؟ ما النتيجة الممكنة الآن؟

هناك قاعدة عامة راهنتُ عليها ضمنيًا في هذه الأوراق، تقول: يكفي أن نفهم السؤال حتى تأتي الإجابة من تلقاء نفسها، وما إن تأتي حتى نكتشف أنها كانت قريبة منا، ومن شدة قربها لم نكن نراها.

هل فهمنا السؤال؟

يمكننا صوغ المعنى الحقيقي للسؤال لماذا نعيش الحياة؟ على النحو التالي:

إلى أين تدفعنا الحياة؟

هكذا نكون قد فهمنا السؤال فعلًا، وبالتالي يمكن أن تكون الخلاصات الأساسية على النحو الآتي:

أولًا، الحياة دافع بالفعل، بمعنى أنها عبارة عن قوى حيوية تدفعنا من داخل أنفسنا، لكنها تسري في كل الكائنات

والأشياء. هذا هو اكتشاف شوبنهاور، قبل أن يستثمره فرويد في مجال التحليل النفسي.

ثانيًا، دافع الحياة له اتجاه معيّن، أو على الأقل له اتجاه عام، إنه الاتجاه الذي تطلبه الحياة من كل الأحياء: الاستمرار، الانتشار والازدهار.

ثالثًا، في لحظة معينة من لحظات التطور البيولوجي لم تعد مهارات التكيف الغريزي قادرة على حماية الحياة من موجات الانقراض التي ضربتها مرارًا، فظهرت بالتالي الحاجة إلى العمل على تغيير المجال البيئي، وتحويله من بيئة معادية للحياة إلى بيئة صديقة للحياة. لأجل هذه المهمة ظهرت الحياة الذكية، وظهر الإنسان.

رابعًا، تتجه قوانين الفيزياء والكيمياء بالأشياء إلى التلاشي والتحلل والفناء، وتتجه قوانين الحياة بالأشياء إلى النمو والتكاثر والازدهار، غير أن قوانين الحياة جزء من قوانين الفيزياء التي تحتفظ بالكلمة الأخيرة، لذلك يبقى قدَرُ الحياة هو المقاومة.

خامسًا، نولد بقوانين الحياة، ونموت بقوانين الفيزياء والكيمياء، لذلك يبقى الموت معطى غريبًا عن الحياة التي لا تستطيع أن تستوعبه. هذا ما يفسر كوننا غير جاهزين لاستيعاب فكرة أننا سنموت، حتى ولو بلغنا المئة من العمر. فلا علاقة للأمر بأنانية الشيوخ كما يظن الشباب، بل طبيعة الحياة كذلك، وإنهم سيدركون ذلك حين يأتي عليهم الدور.

سادسًا، تتّجه إرادة الحياة إلى النمو بلا انقطاع، أو تلك نياتها الأصلية والأصيلة قبل أن تقطعها حقائق الفيزياء والكيمياء بنحو عنيف، وهي لذلك تنتظر من الحياة الذكية المساعدة، وتنتظر أن تأتي المساعدة على أكبر قدر ممكن من الذكاء البشري.

سابعًا، الواقع أن الحياة الذكية دخلت في علاقة معقّدة مع الحياة. فقد اكتشفت الحياة الذكية قوانين الفيزياء بنحو جعلها، من جهة أولى قادرة على صناعة الحياة عبر التحكم في الجينات، ومن جهة ثانية قادرة على إبادة الحياة عبر أسلحة الدمار الشامل. لقد بلغ الذكاء البشري منعطَفًا مفصليًّا في العلاقة مع الحياة.

ثامنًا، يحتاج تقويم مسار الذكاء البشري إلى إعمال مزيد من الذكاء بدل التخلي عنه، أقصد الحاجة إلى تنمية الذكاء المتعدّد في كل أبعاده العقلية والعاطفية والحسّية، وذلك لغاية أن يحرز النوع البشري على قسط كافٍ من الذكاء الحكيم.

تاسعًا، تدفعنا الحياة إلى أن ننمو ونكبر أكثر فأكثر، وذلك لكي تنمو بدورها وتكبر أكثر فأكثر، حين نَفي لها بالمطلوب كما تبتغي، فإنها لن تتأخر في منحنا مشاعر الفرح والارتياح كما نبتغي.

عاشرًا، كل واحد منا ينمو ويكبر وفق قدراته وقدره، ومن خلال ذلك، بوسع كل واحد منا أن يساهم في نمو الحياة بأسلوبه

وبَصْمَته، بل كل واحد منا هو عبارة عن ورشة إبداعية مفتوحة في طور الإنجاز، أو في انتظار الإنجاز، بما يلبي نداء الحياة، وبالنحو الذي يجب أن يرضي إرادة الحياة.

وهذا هو المطلوب:

- أسلوب حياة صحّي يساهم في تحسين الجينات التي ننقلها إلى الأجيال القادمة.
- تواصل وجداني فعّال يساهم في تحسين قدرتنا على العيش المشترك.
- تفكير إيجابي يساهم في تحسين حالة الدماغ والعقل والجسد والروح.
- معرفة علمية تساهم في تحسين قدرة الحياة الذكية على البقاء والنماء.

أخيرًا، إن ساهم هذا الكتاب في تحسين الحالة المزاجية لبعض القراء فسيكون قد أسدى خدمة إلى الحياة، ولو من باب ما يسمّى بـ«أثر الفراشة». فإن رفرفة فراشة في مكان ما، ضمن شروط معينة، قد تنتهي بعد قرون طويلة إلى حدوث إعصار في مكان آخر.

«أثر الفراشة» هو المجاز الأكثر تعبيرًا عن علاقة كل واحد منا بالحياة في أفقها الكوني. إن قرارًا بسيطًا يتخذه الأب أو الأم بالانتقال من مكان إلى مكان، سيؤثر لا محالة على مصائر أبناء الأبناء، وقد ينجم عنه حدث كبير بعد عشرات السنين. كما أن بذرة صغيرة يتركها عابر سبيل في خلاء مقفر، قد تنتج ضمن شروط معينة غابة شاسعة الأطراف، بعد مئات السنين.

لعله «خير بطيء»، قد لا يعني لنا شيئًا بالنظر إلى أعمارنا القصيرة، لكنه يعني للحياة كل شيء، وهي صاحبة الرهان في كل شيء.

نعيش لكي ننمو، وبنموّنا تنمو الحياة.

نعيش لكي ينمو كل واحد منا بأسلوبه، وبأسلوبه يساهم في نمو الحياة، أو هذا هو المأمول.

حياة كل واحد منا هي إجابة شخصية عن السؤال، لماذا نعيش؟

فلا إجابة تشبه إجابة، ولا إجابة تكتمل في النهاية.

كما لا توجد إجابة عامة، يمكن لكل واحد أن يستنسخها لحسابه الخاص.

فلا أحد يشبه أيّ أحد، كما لا أحد بإمكانه أن يتم عمله إن كان قد بدأه بالفعل، غير أن أي مستوى من مستويات بناء الذات سيكون كافيًا بالنظر إلى قصر عمر الإنسان.

الحياة تدرك ذلك، وبذلك تكتفي.

بدورنا ندرك ذلك، وبذلك علينا أن نكتفي.

بعد مرحلة من التعرّض للاتهامات والأذى بسبب آرائه وكتاباته، بلغ الأذى حدّ طرده من عمله في أصعب الظروف. ومع أنه استعاد وظيفته بعد أن تحوّل طرده إلى قضية رأي عام... كان لا بدّ لتلك المرحلة الصعبة عليه وعلى عائلته أن تجعله يتأمّل فلسفة العيش، فوقف سعيد ناشيد أمام السؤال: لماذا نعيش؟

وكان هذا الكتاب الذي يهديه إلى «الخاسرين الذين أضاعوا الوقت في التأمل، فتأخّروا في الطريق، ثم فاتهم القطار...».

«أنا واحد منهم. أجلس في محطة الانتظار من دون أن أنتظر أي شيء».

نحن لا نعبرُ الحياة بل إنّ الحياة هي التي تعبُرنا. فالحياة ليست ممرًّا أو معبرًا بل طاقة كونية كامنة في كل الأشياء، تمتلك إرادتها التي تعلو على كل الإرادات، لكن تجلياتها تختلف من شيء لآخر، من نوع لآخر، ومن شخص لآخر...

كيف إذًا يستطيع المرء أن يجعل العبور جيِّدًا؟

قد يظنّ المرء أنّ عيش الحياة يكمن في أن يجتهد للحصول على مركز يمنحه القوّة والسيطرة، أو على المال الذي يمكن أن يوفّر له شروط حياة مادية مريحة، أو غير ذلك... وهذا يكفيه عن التأمّل والبحث عن معنًى للحياة. لكن كيف يستغني المرء عن المعنى حين يقع فريسة المرض والألم، أو الملل والضجر، أوعند فقدان الأحبة أو انقضاء الشباب أو مواجهة الموت... وما أثقل هذا؟

لوحة الغلاف: ماغريت

ISBN 978-614-472-219-0

9 786144 722190

daraltanweer.com